اقرأ

يوسف الشاروني

مطاردة منتصف الليل





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السّيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



يوسف الشاروني

مطاردة منتصف الليل

اقرأ ٣٦٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٤ - فبراير سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مطاردة منتصف الليل



١

كان ذلك عند هبوط المساء إلا قليلا ، حين كنت أبحث عن شيء أحك به جسدى ، وكانت الليفة هى حاجتى الحقيقية للخلاص مما أنا فيه ، وأنا أؤجل ذلك من يوم إلى يوم ، حتى أدركت أخيراً أن الأمر أصبح ضرورياً لا مفر منه . . .

ولقد صدق حدسى حين هبطت الطريق التى توسمت أنهم يبيعون فيها أمثال هذه الحاجات ، فقد عثرت أخيراً على الليفة الأخيرة فى دكان بائع متآكل الأنف ،وكانت ليفة كبيرة فى غير نفع ، فهى ممزقة كثيبة ومليئة بالثقوب كأنما أكلتها الفئران . . ولكننى لا أحب الجولان فى الطرق ، وأخشى أن تثير كثرة السؤال شبهة حولى ، كما أنى ما أحب أن أعود من رحلتى فارغ اليدين . . فدفعت الثمن فى غير جدل ، ولاحظت البائع وهو يلفها لى فى كثير من ورق الجرائد فى عجلة وبغير كبير عناية ، ثم يمد قامته نحوى قليلا ويدسها تحت إبطى . .

فلما خرجت وسرت وجدتنى — وعلى بعد خطوات قلائل — أمام واجهة زجاجية تزدحم خلفها أدوات مختلفة وكثيرة للزينة ، فبدا لى أن أقف لأسرح فيها البصر . . وكانت زجاجات العطور وألوان الصابون

وأرقام الأسعار تنتشر وتنتصب وتستلقى ، وإلى جانبي معطف، من الفراء يطل منه وجه حسناء وتنبعث منه رائحة نفاذة ، وشابٌ يحادثها وهما يتصنعان تأمل العطور والصابون والأسعار ثم يلتفتان يمنة ويسرة كأنما في حذر ، فلما دخلا الدكان أحسست أن شيئًا يشدني بخيوط لزجة نحوه كأنه المادة الكريهة المتراكمة على جسدى . . ولم أدرك ذلك الشيء فى أول الأمر ، لكن حين استدرت لأعبر الطريق وسط زحمة السيارات والناس كنت قد امتلأت رغبة عنيفة فى الاختفاء ، فأسرعت نحو طريق يهدأ فيه النور قليلا وتهدأ فيه الحركة كثيراً ، ولما أصبحت على مبعدة من هذين الشخصين استدرت خلفي فجأة ، وكان الطريق يكاد يكون خاليًا . إلا أنى كنت موقنًا أن ثمة عينين لزجتين تنتظرانني فى مكان ما وتتعقبان طريقى لسبب ما . .

فانحنيت نحو أحد الشوارع الخلفية ، وكانت اللفافة تعوق حركتى وهى تحت إبطى ، فنقلتها إلى يدى اليمنى ؛ وهكذا أصبحت أكثر حرية . . ثم أصبحت أكثر انحناء وأسرع مشيًا وأنا أخطو فى حذر إلى جانب المنازل الضيقة المعتمة ، باحثًا عن طريق للفرار . . غير أن طريقى الضيق سرعان ما أفضى بى إلى آخر متسع ، يضج بالنور الباهر والحركة والناس والعطور ، وينعكس الوهج على عينى ويملأ العطر أنفى ، وأحسست بجسدى يخوض فى قطع اللحم المتحركة المسرعة المتعطرة ، وأدركت أية سهولة يجدها فى مهمتهم من يقتفون أثرى حين ينتشرون فى هذه الزحمة الكبيرة المتسعة ، وهكذا أشرت إلى سيارة من

سيارات الأجرة ، فلما انحنى بها سائقهانحوى لمحته يتردد قليلا ، وحين وقفت سيارته أمامى تماماً أخذ يتفحصنى بريبة وينظر إلى اللفافة فى يدى ، فأدركت أن ثمة ما يقلقه مثلى ، وثمة ما يقلقه منى ، وفكرت أن أفتحها له وأريه أن ما بداخلها ليس سوى ليفة مما يستحم بها الناس ، غير أنه لم يكن ثمة مجال للنقاش ، فلوحت له بحافظتى ، وفى لمحة واحدة كنت قد أغلقت بابها على نفسي وجلست وحيداً وأمامى سائقى الأسود ...

وكان عليه أن يتجه إلى مكان ما . وكان هذا غريباً وضرورياً وصعباً للغاية . . فأين يمكن أن أختفى فى غير هذه السيارة ؟ ولكن السيارة كانت منخفضة للغاية وجسدى منحنياً فى داخلها كأنما للصلاة بغير أن أصلى . . وقد كرر السائق سؤاله عن الجهة التى أقصدها وهو يلمحنى فى مرآته التى أمامه منبعجاً إلى هذا الحد الفظيع فى سيارته الصغيرة الخانقة . . فلما عبرنا طريقين مزدحمين وتأهبنا للانحناء فى طريق ثالث أحسست السيارة ترتج فجأة كأنما تزلزلت الأرض تحتها ، وسمعت صوتاً مزعجاً ، صوتاً غير إنسانى ينبعث من أسفل سيارتى ..

ولمحت رأس السائق كأنما تتأرجح فى الهواء ، على حين اصطدم جانب السيارة بشدة فى ذراعى اليمنى حتى لقد حسبته قد أصبح كتلة خالصة من دم متجمد ، فلما أطللت من زجاج النافذة المرضوض وجدت ما يشبه بقايا رجل كأنما أجبر على أن يزحف بنصفه الأسفل تحت عجلات السيارة ، والدم ينزف من ذراعه اليمنى ، والقوم يتجمعون ويتفرجون وينزعجون . .

وخيل إلى أن ذراعى أنا أيضاً – وبغير حق – تقطر دماً . . . فأمسكتها بيدى الأخرى وأنا أضغط اللفافة بينهما . وكان علىّ أن أجد مخرجا ، وأنا أنظر فى عينى سائقى ، وهو مشغول بالإجابة عن غضب الجماهير التى تزاحمت حتى أصبح مجرد انتسابى إلى السيارة شيئا خطراً للغاية . . وهكذا كان على أن أتخلى عن سائقى فى هذه اللحظة الحرجة من حياته لئلا يكتشفنى أحد الذين يتعقبوننى ويجدون الفرصة ملائمة لهم ، فيشركوننى فى اتهام لا يد لى فيه .. وهكذا حملت لفافتى وتسللت من السيارة وأنا أحس ارتجاجها فى ذراعى حياً ومؤلماً وفظيعاً للغاية . . .

وتركت سائقى وحيداً وله فى عنقى بضعة قروش لم أدفعها له ، واتجاه لم أخبره عنه ، ومعونة ما قدمتها له ، ونظرات الذعر فى عينيه لا تمحى من عينى . .

وكان على ألا أستسلم وألا أسلم أبداً لمطاردى .. لهذا عندما وجدتنى أمام باب للسينما ، وفى مقابل الجمهور المزدحم تماماً ، عرجت ناحية النافذة الحديدية المربعة ، حيث جلست عجوز مصبوغة بالألوان تقضم أظافرها وتتأملها فى سرعة وقلق ، فانحنيت واشتريت منها تذكرة بغير أن أعرف أى الأفلام سأرى ولا من ذا الذى سيجلس على المقعد التالى بجوارى . . وحين انحنيت وأنا داخل من الباب المنخفض لمحت قاطع التذاكر يهمس شيئاً فى أذن زميله ، ولا ريب أن اللفافة أثارت شيئاً من ريبة فى نفسيهما ، مما أحزننى حزنا شديداً ، لأنى كنت واثقاً أنه

إذا قدر لأحد ممن يقتفون أثرى أن يسألهما عنى ، فلا شك أنهما يستطيعان تذكرى ويدلانه على رقم مقعدى . .

وكان الفيلم قد بدأ وأنا داخل على أطراف أصابعى ، والأشياء تبرز قليلا قليلا من العماء التام الذى واجهنى حين دخولى .

وحين أصبحت أكثر ألفة مع العتمة تحت سقف القاعة يكاد ينحنى فوق الناس وقد ازدحموا ازدحاما لامثيل له كأنهم مذعورون يلجأون من غارة ... وقد حشرت بين رجلين عن يمينى يتحدثان بصوت خفيض كأنما يقلقهما أمر ، وأحدهما دائم التمخط ، وسيدة عن يسارى تحك ذراعها وهى تهمس شيئاً فى أذن زوجها على ما يبدو ، مما أغرانى لحظة أن أحك أنا أيضا ظهرى الملبد بالعرق ، ولكنى ما كنت أجرؤ على ذلك لئلا ألفت الأنظار وأبعث الاشمئزاز من حولى .. وكان فى همسهما شىء من كآبة كأنما انتزع ابن منهما أمس . . أما وجودى المفاجئ فيبدو أنه قد أثار حولى شيئاً من التأفف لأننى أحدثت شيئاً من ضجة وقطعت عليهم صمتهم وإنصاتهم كأنما أزيز الطائرات فوقهم . . ولا شك أن الجالس خلفى كان سيىء الحظ تماماً ، فقد سمعته يبدى بعض التبرم ، ويهمهم بكلام غير مفهوم راجياً أن يصلنى منه شىء ، فقد كان يبدو أنه قصير القامة وعليه أن يميل إن يميناً وإن يساراً إذا حرص ألا يفوته انتحار أحد أبطال القصة ، ولقد انتحر البطل فعلا ، ولكنه لم يكن البطل الرئيسى بطبيعة الأمر ، والواقع أن هذا كان البداية فقط . .وكان مقعدى منبعجاً إلى الأمام قليلا بحيث أكاد أنكفئ على وجهى ، فى

أحد جانبيه انخفاض شديد . . وحين حاولت أن أعدل من جلستى المضنية سرت طقطقات فى المقعد وانتشرت حتى آذت القوم من حولى ، وأحسستها تسرى فى أسنانى فآثرت أن أظل ساكناً لا ألتفت يمنة أو يسرة منحنياً إلى الأمام متشبثاً حتى النهاية بمسندى مقعدى . . وبينما كانت السيدة تحك فخذها بأظافرها الطويلة المصبوغة وبصوت خشن مسموع كان البطل الحقيقى يطبع قبلة على شفتى حسناء تصاحبها موسيقى عاطفية حالمة . . وفجأة وعلى الشاشة ، بدا ضجيج موسيقى كتفجر القنابل . . والسيدة إلى جانبى ما تنفك تحك ساقها اليمنى ، ثم تمسك منديلا تجفف به دمعتين ، فلا ريب أن البطل كان يستحق كثيراً من الرثاء ، بحيث لم أستطع أنا أيضاً أن أمنع عن نفسى إحساساً فجائياً بالكآبة . . فلما لمحت زوجها يشاركها دموعها أدركت أن شيئاً هنا — مريراً وكئيباً — يمس حياتهما .

غير أن هذا لم يكن كل شىء ، فقد كانت النهاية السعيدة مقبلة بلا ريب، فبرغم هذا الخطر الحقيقى الماثل ، وبرغم هذه الكآبة الضرورية الفجائية ، كان يملؤنى إيمان أستمده من كثرة الأفلام التى رأيتها من قبل وهو أن هذا ليس إلا السبيل إلى الإحساس بالنصر الحقيقى السعيد . . وهكذا سرعان ما انشرحت الأسارير — التى اكتأبت مدى ثمانين ثانية كاملة — ثم ضجت القاعة بتصفيق متقطع أجوف ، وقهقهات منبعثة من أماكن بعيدة ومجهولة ، والرجل ماض يحدث صديقه حديثاً هاماً أكثر أهمية مما كان عليه من قبل ، بحيث مال تماماً على أذنه وأصبح

خفيضاً ومتصلا وجدياً . . .

وكان يبدو أن البطل يبحث الآن عن حسنائه ليقبلها القبلة التقليدية الختامية على ما أعتقد ، أو لعله سيبدأ معها دوراً جديداً من أدوار القصة غير أن صوت الأظافر الخشن عن يسارى وحركة الرجل القصير القامة من خلفى ، وتوقعى وجود شخص أو أشخاص حولى ممن يبحثون عنى ، وتمخط الرجل عن يمينى ، ثم مقعدى المنحنى المتكسر كأنما سيهبط بى نحو الأرض فى أية لحظة ، جعل المدة التى عشتها فى هذا المكان كافية تماماً . . والعتمة والأنفاس الحارة والصمت والتوقع .. جعلت مغادرتى لهذا المكان حاجة ضرورية وجدية للغاية . .

٢

فلما خرجت أهرول قبل أن تفرز السينما جمهورها ، كانت الطرق قد ازدادت إظلاماً ، والناس يمشون فى حذر فرادى بجوار الحوائط كأنهم سيلتقون بفاجع عند نهاية الطريق ، أو هم يتدحرجون على حافة الأرصفة تماماً كأنما يعدون خطواتهم ، وقد وجدتنى أسير خلف رجل أعرج وأنا أعد خطواتى أيضاً كأنما أقيس بها الطريق ، وكان الأعرج يهرول وقد جذبنى خلفه وفى دائرته ، بحيث حرصت — وبغير أن أحرص — على أن أبقى المسافة بيننا بلا زيادة ولا نقصان ، فاضطررت أن أهرول مثله ، ولما تنبهت إلى ذلك أشعت الاضطراب عامداً فى سيرى ، وأسرعت قليلا فى خطوى ، فقد خشيت أن يحسب الرجل أنى أتبعه

وما كنت أحب أن أعرضه لمثل هذا الإحساس المحير الخانق ، فعبرته ومضيت أسير أمامه حتى أثبت له حسن نيتى ، وأن الأمر كان مجرد مصادفة خالصة وليس ثمة خطة مبيتة على الإطلاق ، وهكذا رضيت لحظة عن نفسى لأنى قد أكون أزحت عنه إحساساً لا شك أنه لازمه لحظة ، فهأنذا الآن أسير أمامه وها هو ذا يخب ورائى مرتفعاً ومنخفضاً باستمرار وها هى ذى المسافة بيننا تبتعد حتى لنكاد نفترق .

وكانت اللفافة ما تزال فى يدى ، وقد ضمرت وتهلهل بعض ورقها لقبضتى المتشبثة بها ، إلا أنها أصبحت مبعثاً حقيقياً للريبة والخطر ، فإن أحداً لا يمكن أن يدرك أبداً — وعلى وجه يقينى — ما بداخلها ، فهى تثير للسائرين معى شتى الظنون ، حتى لقد فكرت أكثر من مرة أن أتخلى عنها وألقى بها فى أقرب زاوية ، إلا أن ذلك كان أكثر خطراً بالنسبة لى : لئلا تستحيل ريبة العابرين إلى يقين ، ويدركون أن شيئاً خطراً وفظيعاً حقاً بها ، مما يسبب لى مضايقات لا نهاية لها ، وكنت أكافح كفاحاً هائلا حتى أقتنع أخيراً ، لحظات معدودات ، بأن أحداً لا يهتم بما فى يدى ، وهكذا كنت بين شعورين متناقضين يتبادلاننى الواحد بعد الآخر ، كأنهما يدان متوحشتان تلطماننى على وجهى بالتناوب ، فكنت أرى الناس ينظرون — ولا ينظرون — إلى اللفافة .

وكلما انزلقت فى شوارع أكثر إظلاماً ، كنت أسمع بين حين وآخر قهقهات وهمسات تنبعث من زوايا ومنحنيات مجهولة . .

وكنت أخشى دائماً أن يصلهم وقع أقدامى فيحسبوننى سأفاجئهم

لاستجوابهم ، فأفسد عليهم – وبمجرد هذا الشك الذى يصيبهم – لحظة من حياتهم . ولهذا كنت أتعمد أن أضرب بقدمى الأرض بصوت واضح مسموع ، حتى أعطيهم المهلة الكافية لتدبير أمورهم . ولكن ما إن بدا لى أحدب متآ كل الوجه ، يدخن « سيجاراً » على مهل وبطء عند بدء الطريق المفضى إلى الميدان التالى ، حتى وجدتنى أنكمش وأسرع وأخفف من وقع أقدامى ، حتى لقد نظر إلى فى ارتياب ، وصعّد بصره نحوى ، مما زاد شكى أنه قد يكون فى أثرى أو فى أثر آخرين . فما هو ذا شخص لا يخاف وقع أقدام فى الليل ، وفى مثل هذه المدينة المتسعة الكئيبة ، ويدخن سيجاره بهدوء ، وينظر إلىّ فاحصاً ، حتى إذا ما استقر بصره على اللفافة أحسست أننى أحمل فى يدى خطيئة ملموسة وحقيقة يستطيع – إذا شاء – أن يدينى بها . وهكذا عشت ثلاثين ثانية فقط شخصاً يقتفى الناس . ثم سرعان ما أصبحت موضوع ذلك الاقتفاء .

وكان علىّ أن أجتاز ميداناً صغيراً قبل أن أصل إلى الطريق النهائى . . فسلكت جانباً كانت قد نصبت فيه مراجيح قلائل متفرقة ومهجورة غمرها صمت ووجوم . ورأيت على ضوء المصابيح الخافتة ظلى الطويل ينعكس على أرض الميدان المغطى بالحشائش الجافة والتراب ، حتى يصل إلى ما وراء المراجيح . وثمة عابرون قلائل يتهامسون ويتلفتون ، والأشجار الساكنة تلقى ظلالها كأنما فى تراخ وملل . ولم يكن أمامى أن أختار ، فقد كانت الظلمة هى ملجئى الوحيد . الظلمة التى يغور فى نهايتها منزلى قابعاً ومستكيناً للفجيعة التالية . . فمضيت أتدحرج وأصوات

القوم تتقهقر من أذنى شيئاً فشيئاً أمام نباح الكلاب المخشوشن الجاف وهو يرتفع وينداح ، وكان هذا علامة على اقترابى من منزلى . فلما سمعت صوت الكلب الأسود الضخم على السطح التالى لمنزلى ينطلق أجوف منخوباً فى الظلمة أدركت أننى وجهاً لوجه أمام باب بيتى . وترامى إلى سمعى وقع أقدام بعيدة ، فلما تلفت لمحت ما يشبه الظل المتكور البعيد ، ما إن رآنى حتى انحنى نحو الأرض كأنما يبحث عن شىء مجهول فتفرست أبحث لعل أحداً يتصنع التنزه حول جدران بيتى ، أو لعل الظل أن يقترب متصنعاً السؤال عن طريق أجهله .

وكنت أعلم أن خادمتى « نور » لا بد أن تكون قد نامت منذ زمن بعيد ، فها هى ذى قد أطفأت أنوار المنزل جميعه ، وهى ما تعودت منى المجئ فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولولا مرضها لكانت قد ذهبت واشترت الليفة بنفسها ، وكنت أحب ألا أزعجها ، وكنت أدرك أنى سأزعجها ، وذلك عند محاولتى فتح الباب فى مثل هذه الساعة من الليل ، فهى — مثلى — رقيقة حساسة ، تتوجس خيفة من كل طارق فى الليل ، فهى لن تسمع الحركة الحذرة للمفتاح فى الباب حتى تهب مذعورة من نومها .

ويزدحم رأسها بخليط رائع — أنا آلفه تماماً — من الأوهام والحقائق ، وستكون الحركة الخافتة الحذرة هى أقرب إلى حركة الغريب المتلصص منها إلى حركة صاحب البيت المطمئن ، وستعانى لحظة انتظار واستسلام هائلة كالقضاء ، لهذا بدا لى أن أدخل البيت فى حركة مسموعة

مطمئنة . غير أن هذا أيضاً لم يكن أقل خطراً من المحاولة السابقة . وفكرت أخيراً ألا أدخل على الإطلاق وأنه من الخير لى ولها أن أفضل البقاء خارج بيتى ، غير أن هذا التفكير لم يستمر أكثر من عشرين ثانية . فقد كانت هناك قلقلات بطيئة خفية تشرئب فى الليل حولى ، لا يخفيها تماماً نباح الكلب الأسود الضخم وانقياد بقية الكلاب له ، فلا أنا أعرف مكانها بوضوح ولا هى تختفى تحت ستار هذا العواء المتصل المستديم . وكان نباح الكلب قد ارتفع واتجه نحوى — ومعه جوقة الكلاب الأخرى — متصلا مؤلماً عن ذى قبل ، بحيث لابد وأن يثير ريبة السكان فى وجود غريب يتلصص قريباً من بيوتهم .. وهكذا اتضح لى أن محاولة البقاء خارجاً إن هى إلا محاولة خيالية ليس من سبيل إلى تنفيذها . لهذا جمعت أطراف شجاعتى وأولجت مفتاحى فى الباب فانفتح على الأثر ، ودخلت وأنا أتلمس الضوء بيد وأقفل الباب بيد ، فى بطء وإنصات.

وأنصت . . فسمعت مواء قطى ممطوطاً ومبحوحاً كأنه نواح . فقلت لا شك أنها جوعانة ، وأن خادمتى المريضة السمراء ذات العين الواحدة قد نامت بغير أن تطعمها لما ألم بها من تعب هذا النهار .

فما إن أضأت النور حتى وضعت اللفافة على المنضدة ، وأسرعت أنزع الورق ، ورقة ورقة ، بغير أن أصل إلا إلى فراغ ! فلا شك أن الليفة — وا أسفاه — قد سقطت منى فى أثناء هذه المطاردة المضنية . . وفكرت أين يمكن أن تكون قد سقطت . فى السيارة أم فى السينما أم فى الطريق حين نظر الأحدب فى ريبة نحوى ؟ ولم أستطع أن أفهم شيئاً ،

وما كان يمكن لى أن أتذكر أو أفهم . . لقد كنت أحس بكتلتها داخل الورق حين اشتريتها وكذلك حين وقفتى أمام الواجهة الزجاجية . . لكن متى بدأت أفقد الإحساس بكتلتها ؟ ليس ثمة سبيل إلى معرفة ذلك أبداً ، وسيظل هذا اللغز مجهولاً إلى الأبد . .

لقد كنت أمنى النفس بحمام رائع هذه الليلة ، حتى أتخلص من هذا العرق الذى يتسرب متلكئاً فوق جسدى ، ويزحف فى خطوط متعرجة من منابع تنضح باستمرار وبلا انقطاع ، وحتى أنام — لأول مرة منذ ليال — فى سعادة عميقة . . فأنا شخص عندما ينسكب فوقه الماء المتدفق أحس إحساسات عظيمة رائعة ، وأقوم بمشروعات ضخمة وحقيقية ، وتتفتح أمامى كل معانى الحياة المقدسة ، وأتشبث بالأرض وبالإنسان ، وأحس أننى كائن عظيم وسعيد . . فهنا ، وفى الحمام ، أدع الماء ينهمر فوقى حتى يتشربه شعرى وعيناى وكل مسام بدنى ، ويظل يعلو فى داخلى إحساس سماوى يرتفع شيئاً فشيئاً وأنا أصيح وأغنى وأقفز ، حتى أصل إلى قمة فيها تقترن العظمة بالسعادة كأنما لأول مرة ولآخر مرة . . . وكانت هذه هى حاجتى الحقيقة إلى الليفة فى حياتى . .

فألقيت نظرة جد آسفة على هذا الورق الكثير الفارغ الراقد فوق المنضدة بلا منفعة ، وعلى هذا الجهد الضائع الذى بذلته مخلصاً طوال هذه المرحلة الشاقة المضنية . . وأدركت أننى أمام قوى تسلبنى كل شىء وتفقدنى فى عراكى معها كل شىء ، حتى الليفة التى كنت أحلم بما ستنعم علىّ من حمام رائع وسعادة مطهرة . . وأدركت أننى فى معركة غير

شريفة ، ولكن عليّ ألا أياس ، ولا ألقى أسلحتى أبداً ، وأن أستعد للدفاع عن نفسى ، وأن أدرك الخطر المقبل .

وكان مواء القطة ما يزال ينوح فى جنبات البيت ، ولم أكن أعرف أين يمكن أن يكون طعامها ، فذهبت نحو « نور » علها تكون مستلقية متيقظة متعبة ، ولكنى وجدتها نائمة ، نوماً عميقاً وبلا قلق ، فلما صرت أكثر اقتراباً منها لأتأكد من ذلك ، لفحتنى أنفاسها المنتظمة على وجهها ، وثمة عرق كريه — أكثر كرهاً من عرقى — فابتعدت عنها . . ثم اتجهت إلى المطبخ أبحث للقطة عن طعام . .

وانحدرت نحو المطبخ أتلمس الضوء ، فلما أضأته ، لمحت على المنضدة طبقاً فيه ما يشبه الجبن وخطوطاً هندسية من النمل تذهب وتجىء منها وإليها ، فأشعت الاضطراب فى هذه الخطوط بنفخة من فمى حتى أبعدتها عن الطبق قليلا ثم قلت : ها هو ذا قد وجدت لك أيتها القطة المسكينة ما تتبلغين به فتواصلين إطعام صغارك حتى الصباح . . غير أنى لاحظت أن قطعة الجبن تموج بالدود خلالها وحواليها وينتشر منها ويقفز فى اتجاهات مختلفة لا معقولة . . وحاولت عبثاً أن أغرى بها القطة فلا شك أنها تعرف مكانها وتأنف الاقتراب منها ، وها هى ذى تعاود المواء وتتشمم زوايا المطبخ وأثداؤها المدلاة تكاد تلمس الأرض . .

فلما خرجت من المطبخ أدركت أن نوافذ بيتى لا تزال مفتوحة وكنت قد لاحظت ذلك منذ دخولى ، وكانت النوافذ المفتوحة تثير فىّ قلقاً خافتاً ظللت أقاومه وأقاومه حتى اتضح واتضح ، فقد كانت

النوافذ منخفضة بحيث يمكن للعابر فى ظلمة الطريق أن يرانى وأنا مغمور فى النور من غير أن أراه . .

وكانت بها قضبان حديدية تمنع اللصوص ، وشباك سلكية تمنع الحشرات التى قد تسعى خارجاً فى الليل ، ولكنها ــ ما دامت مفتوحة ــ تبيح للنظرات الخارجية أن تنفذ إلى داخل بيتى حين يغمر النور تتأمل ما فيه من أثاث وما فيه من حركات وهمسات . . وكانت نافذة الردهة أمامى مفتوحة على مصراعيها وخيل لى ــ وربما بغير حق ــ أن ثمة خيالا قد مر ، فأسرعت أطفئ النور حتى يخفينى عنه الظلام وتضل عنى عيناه ، فلما انطفأ النور رأيت الطريق الآن من خلف نافذتى الحديدية مغموراً فى ضوء لا هو بالعتمة ولا هو بالنور ، وكان كل شىء ساكناً كأنما الحركة التى سمعتها قد ربضت تتحفز حتى أضىء النور من جديد . . وكافحت كفاحاً هائلا وحقيقيا وأنا أتجه نحو مفتاح النور لأضىء الردهة من جديد ، ولكن الكلب كان دائب النباح ، والقلقلات تنبعث من خلف نافذتى ، حتى مرت دقيقة ولعلها عشرون ، وكانت هذه نهاية طاقتى الإنسانية ، فاتجهت نحو النافذة وأغلقت بحذر نصفها الخشبى على أن أخفى جسدى فى المكان الذى يحميه هذا النصف من الغرفة ، وكافحت من جديد وأنا أوجه نظرى ما بين حين وآخر إلى النصف المفتوح فإذا حولت بصرى عنه أرهفت أذنى نحوه . . .

ومرت ثلاثون ثانية ثم قمت أغلق نصفها الآخر وأنا أنصت لما عسى أن يكون خلفها متسائلا عما إذا كان هنالك من رأى حركاتى وهواجسى .

وما إذا لم يكن قد ارتاب فىّ لمجرد هذه الحركات وهذه الهواجس . . لقد أغلقت الآن النافذة ووضعت بينى وبينه حاجزاً يمنعه من العمل فى الظلام والتستر فيه ، فإذا كان ثمة من يتتبعنى فليطرق الباب وليواجهنى فى نور بيتى وليحدد لى شكله وصوته ومهمته فهذا خير من تحركه فى الظلمة خارج بيتى كأنه هاجس شيطانى أعرفه ولا أعرفه كأنه قريب جداً منى وبعيد جداً عنى ، كأنه موجود ولا موجود . . وهنالك ذلك الكلب الأسود الضخم يعلو نباحه ويشتد كأنما هناك من يزمعون اقتحام بيتى فى كل لحظة أو كأنما هناك آلاف المارة الغرباء يسعون ذهاباً وجيئة فى حارتنا المتواضعة هذه الليلة . .

٣

وسمعت طرقاً ناعماً على الباب كأنه وقع حوافر الدواب فى ليالى الحصاد ، أو كأنه تساقط المطر فى أوائل الخريف أو كأنه تكسر أحطاب جافة تحت أرجل حيوان ، فوجف قلبى ، فقد كان هذا هو ما توقعته تماماً . ثم عاد الطرق من جديد شديداً متعالياً ومغموراً فى الظلام كأنه أحجار يلقيها أطفال على شجرة النخيل أو كأنه أظافر كلب تبحث عن عظمة بين التراب ، أو كأنه الريح تصفق حطام منزل خرب . . وعاد الطرق يشتد حتى اهتزت له جدران المنزل وتململت « نور » فى فراشها ، فأدركت أنه يجب ألا أتأخر أكثر من ذلك ، وأن الطارق يريدنى جدياً أن أسرع إليه فليس علىّ إلا أن أفتح الباب ثم أكون على أهبة الاستعداد . .

فلما فتحت الباب وجدتني أمام ذلك الأحدب البشع الذى سبقته فى الطريق منذ لحظات ثم برز وراءه من الظلمة شخص أنيق الهندام رائع الوجه حتى لقد حسبته فى أول الأمر حسناء يصحبها الأحدب ، وكانا يرتديان ثياب السهرة السوداء . . ودخلا بلا استئذان وانحرفا ناحية المخدع ، فهما — كما يبدو — يعرفان الطريق . . وكان الطرق قد أزعج « نور » فرأيتها تفتح عينيها ، إلا أنها ما لمحت الأحدب بوجهه المتآكل حتى أغلقت أجفانها من جديد ، وشدت على وجهها الغطاء بحيث ظهرت أصابع قدميها ، فلما حاولت الدخول وقف الرشيق إلى جانبي يمنعني ويقول لى موضحاً أن تحقيقاً سيجرى معى وبشأنى فى هذه الليلة وهما يبحثان الآن عن أدلة الاتهام . .

واتجه الأحدب نحو الدولاب يقلب فيه ملابسى ، ثم اتجه نحو صندوق فى زاوية سفلية منه قد علاه التراب وكنت قد نسيت ماذا وضعت فيه . . فلما اقترب منه أخذ ينفض عنه التراب . . وتذكرت ما به وعرانى وجوم ثم ضحكة خافتة أنبنى عليها الرشيق بنظرة منه . . ورأيته يفض الرسائل القديمة يقرؤها واحدة واحدة ، وكنت قد حرصت أن أضعها بعيداً — حتى عن نفسى — فى مثل هذا المكان ، حتى كدت أنسى أمرها تماماً ، ولو أنى تذكرتها أخيراً لأحرقتها فيما أحرقت من صور وذكريات ما كنت لأطمئن إلى عدم وصول كائن إليها . . وهكذا قدر لى أن أرى رجلا أحدب متآكل الوجه يقرأ قبل منتصف الليل أعز ذكرياتى ويفض

الأسرار التى تكوّن مقومات حياتى والتى ذخر بها شبابى ، والتى حرصت على أن تستمد قداستها من علاقتها الصامتة القائمة بينها وبين نفسى . . وكأن الأحدب يبحث حيناً فى دقة .. ثم يبدو أن نباح الكلب المستمر يضايقه فتضيق عيناه وينظر نحوى ثم يعاود القراءة من جديد ، وكان عجزى هو أنى لم أستطع أن أشاركه ولا أن أفهم التيارات الخفية التى تعتمل فيه وهو يقرأ رسالاتى القديمة العزيزة ، ثم اتجه نحو « نور » – بعدما أدرك عبث قراءته – وتأمل فيها قليلا ، وخشيت أن تصاب المسكينة بسوء ، فقد أزاح الغطاء عنها ، ولا ريب أن المسكينة كانت تقشعر الآن ، فقد انحنى – حتى أصبح منبعجاً كنصف الكرة – وأدركت أى فزع يتملكها ، وأنا ما أستطيع إنقاذها ، فعلى قيد ذراع منى يقف الشاب الأنيق ومعه ما يشبه مسدساً فى يده ، وأنا حريص على حياتى بل أنا حريص ألا أصاب بجرح أوبألم سخيف ، كأن يكون لكمة مثلا . . ولكنى تساءلت فى هذه اللحظة ما إذا لم يكن حرصى على حياتى بهذه الصورة يفقدنيها ، وكان ذلك عندما انحنى الأحدب يقبل « نور » ويحتضنها ، قبلة حقيقية لا شك فيها هذه المرة ، برغم الرائحة الكريهة النفاذة ، وبرغم ما رآه بوضوح من جحوظ إحدى العينين جحوظاً بشعاً مشوهاً تفقده كل شهية نحوها . . .

فلما انتهى من هذه المداعبات المريبة ، أخذ يعدل من ياقته البيضاء ثم أخرج ما يشبه المذكرة ودوّن ما يشبه الملاحظات ، ثم

مضى يقلب تحت السرير ، ورأيته يخرج نصلا ذا حدين ويغوص به فى الوسادة حيث كانت المريضة « نور » راقدة ، ومضى يعبث بقطع القطن المتلبدة وينثرها أمام عينيه ثم ينفخ فيها وهو يتأمل محاولاتها الفاشلة للصعود . ثم يبعثر بقيتها على الأرض . . فلما أبديت شيئاً من اشمئزازى ألقى به فى وجهى .

وخرج من المخدع وأنا أتبعه مع حارسه الأنيق ، حتى وصلنا إلى باب المطبخ ، فمنعت كذلك من الدخول ، واكتفيت بأن أقف بحيث أستطيع أن أرقب كل شىء ، فلقد ذهب الأحدب يقلب بطرف سبابته فى القطعة التى كانت جبناً واستحالت — منذ الأمس على وجه التقريب — إلى مجموعة من دود ، وكان النمل قد عاد إليها من جديد . . ثم مضى يقلب فى القمامة ، وبها فضلات من طعام وبقايا خبز جافة وأوراق متسخة يحاول أن يقرأها بعينيه الكايلتين ، ولاحظ القطة وهى تموء فنظر إليها بارتياب فى أول الأمر وإلى أثدائها المدلاة ، وتتبعها وهى تتشمم زوايا المطبخ ، ثم ما لبث أن انصرف عنها وقام يقيس عرض المنضدة ، وهو دائب يدون ملاحظاته الهامة الدقيقة ، ويرفع يده اليمنى نحو أذنه اليمنى كأنما يطرد بها الذباب كلما تنبه إلى عواء الكلب المتصل فى الظلمة الخارجية . .

ثم خرج من المطبخ ليعد نوافذ المنزل واحدة واحدة ، وأبوابه ، ثم بدا لى أنه يعد قطع البلاط فى كل غرفة ، ولو أنى ما تأكدت من ذلك أبداً فقد أغفلوا ذكر ذلك فى التحقيق . . وكان هذا هو كل

ما يحتويه منزلى : غرفه للنوم ومطبخ للطعام وردهة فيما بينهما . . فلما أوشكا على الخروج لحا الأوراق الفارغة منثورة وممزقة فوق المنضدة بالردهة ، وكانت لا تزال بها بقايا العرق من آثار قبضتى التى تشبثت بها طوال هذه الليلة ، وقد أثارت هذه الأوراق اهتمامهما البالغ ، فأدناها الأحدب من أنفه ثم أدناها إلى أنف زميله يتشممها معه ، فلما لم يقنعا بذلك أخذا يقرآنها بعناية ، وما لبثا أن وضعاها فى ظرف كبير ونظيف ثم رأيتهما ينتحيان ويتهامسان ، كل منهما يهمس بدوره كأن ثمة مؤلفاً وضع لهما حواراً وهما يشيران إلى ما وضعاه بالظرف ، وقد عددت المرات التى تكلم فيها كل منهما فوجدتها اثنتى عشرة مرة ، فقد همس الأحدب فى أذن الرشيق اثنتى عشرة مرة وهمس الرشيق رداً على الأحدب اثنتى عشرة مرة . . ثم دون كل فى مذكراته ما يشبه الملخص العام وما يشبه الرأى النهائى فى الأمر . . وانتزعاتى من بيتى ، ثم اقتادانى إلى الخارج حيث ظلمة الظلمات . .

٤

وكانت غرفة التحقيق — بعكس ما كانت السينما — مرتفعة الباب شديدة النظافة ، قوية الإضاءة ، خالية صامتة كأنما تنتظرنى . . وقد دفعنى الرجلان إلى الداخل بغير أن يدخلا ، ولم أجد مقعداً واحداً فاضطررت أن أجلس القرفصاء على الأرض متأملا ظلى المطمئن إلى جانبى . . وجعلت أنتظر .. كان ثمة منضدة مستطيلة ومرتفعة

ونظيفة جداً أمامى وليس عليها شيء على الإطلاق ، ومن خلفها ستارة مزركشة يغلب عليها اللون الرمادى كالتى يضعونها فى بعض الهياكل ، ثم أربع زوايا وسقف وأرض خشبية كلها نظيفة ومضاءة ومعنى بها عناية فائقة . . ومضيت أنتظر وأرقب ما عسى أن تكون الحركة التالية . .

وسمعت صوتاً ينادينى ، فاستدرت أبحث عمن يكون مصدره ، لكنه كان يبدو آتياً من خلف جدار ، أو من خلف الستارة على وجه التحديد . . وهكذا أدركت أنى لن أرى وجه محققى ، ولكنى عرفته برغم هذا الجدار المصطنع القائم بيننا ، فلا شك أنه كان صوت ذلك الشاب الرشيق الذى كان يحرسنى ، على حين بدا لى أن الأحدب يقوم الآن بدور ثانوى هو دور الكاتب ، فقد سمعت حفيف القلم أكثر من مرة وهو يحاول اللحاق بى حتى لا يفوته شيء مما أجيب .. وكان واضحاً أن المحقق يعرف كل شيء عن حياتى ، فقد مضى يلقى أسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة ، على أن أجيب عنها جميعاً بلا تردد ولا غموض .. وقد بدا لى أكثر من مرة أن أفاجئه بمعرفتى له ، أو على الأقل أن أطرد — فيما بينى وبين نفسى ؛ سلطته — وأنتزع من قلبي الإيمان بقدرته التامة على اتهامى وعقابى ، وبهذا وحده أستطيع أن أضع بينى وبينه حجاباً حقيقياً وكثيفاً لا يستطيع أن ينفذ من خلاله إلى ما يجد من أسرار فى حياتى . . كان ضعفى أمامه وخوفى منه وإيمانى بقدرته وحرارة الغربة المعذبة هى التى تساعده على الحصول

منى على كل ما يريد . . سألنى عن اسمى وعن وظيفتى وعن أقربائى ، وسمعت الأحدب يكتب جميع الإجابات فى سرعة فائقة ، ثم عاد يسألنى عن سبب اختيارى لهذا المسكن فى هذه الحارة ، وعن سبب وجود هذه الخادم بهذا الاسم فى منزلى وما إذا كان لى بها علاقة .. ثم عاد يسألنى : ما الذى كنت تحمله معك مساء اليوم ؟ وأجبته : ليفة مما يغتسل بها الناس .. فقهقه قهقهة مدوية وسألنى : أين اختفت إذن ؟ أجبته ؛ لقد ضاعت منى فى أثناء الطريق .. قال : إذن فها أنت تعرف .. ثم زاد ضحكه رعباً ودوياً ، كما يبدو أن الأحدب رمى قلمه واستلقى على قفاه ليشترك معه فى الضحك . . ثم سألنى عن معنى الكلام الذى كان مكتوباً فوق ورق الجرائد ، وعن لون مخدعى الأزرق ، ولماذا أخذت سيارة الأجرة ثم هربت منها ؟ ولماذا شاهدت ذلك الفيلم بالذات وجلست بين السيدة والرجلين ؟ ولماذا انحنيت على أرض الطريق ؟ وماذا التقطت إذ ذاك ؟ وهذا أمر لا أذكر أنى فعلته هذا المساء إلا أنى لم أستطع أن أنكر احتمال ذلك ، بل وتصديقه ، فقد كان يبدو أنه يعرف أشياء أجهلها أنا عن نفسى وهو لا يريد حقائق فهو يعرفها ، لكنه كان يريد أن يحصل على اعتراف ، وهكذا بت على استعداد لأن أؤيده على اقتراف أعمال بمجرد ذكرها لى .. فمضى يسألنى عن القط الذى كان يموء ، والجبن والدود والكلب الذى يملكه جارنا والخطوات التى كنت أقيس بها الطريق ، ولماذا لا أدخن ولماذا لم أستطع الزواج ولماذا لا تستطيع الاختلاف إلا إلى

مقهى واحد ؟ . . كان يطلب منى تفسيراً لأشياء لا أجد لها تفسيراً ، وكان هذا عجزاً حقيقياً منى فقد توهمت أنى هيأت نفسى بكل ما أملك من دفاع ، لكن سرعان ما يثبت لى خطئى الفاحش وأنى مجرد أعزل من كل شيء أمام هذا السيل المنهمر من الأسئلة الدقيقة التى تخصنى تماماً والتى كان يجب أن أعرف إجاباتها جميعاً . . كان المحقق يضعنى موضع المسئولية من كل ذلك ، وإنى لمسئول عنه جميعاً . .

وحين انقطع حفيف القلم أدركت أن التحقيق قد انتهى ، وعلى أن أخلى المكان فقمت أتجه نحو حارسى الذى كان ينتظرنى فى الظلمة الخارجية ، متذكراً كيف كنت فى جبن أتحايل على التهرب من الإجابة الصحيحة ، لأنه كان يبدو لى أنه لم تكن ثمة إجابة لكثير من هذه الأسئلة .. لهذا أدركت أنى قصرت تقصيراً شديداً ، تقصيراً يكاد يدنينى من العدم . . فى استطاعة هذا المحقق أن يلصق التهمة بى ، ولهذا أعددت عن نفسى هذا الدفاع .

فغداً سيجلسون لمحاكمتى ، وسيلقون على التهمة وإن أدعهم يستمرون . . سأدافع عن نفسى ، وسأجعلهم يدركون أن شيئاً مما فعلوه لم يكن ليفاجئنى . . سأخبرهم كيف نشأ لدى ذلك شيئاً فشيئاً وأنا أعبر طرقات هذه المدينة المزدحمة فى طريقى إلى عملى صباحاً وفى طريقى إلى مقهاى مساء وفى طريقى إلى منزلى صباحاً ومساء . . سأقول لهم إن زحمة الطريق كانت تضايقنى ، وحتى

المقهى الذى اخترته لأن به شيئاً من هدأة ، كان أحياناً ما يزدحم فى بعض الأماسى ، فينعكس ضجيج الناس ووهج النور فى عيونهم وفى رائحة دخانهم ، فيصيبنى انقباض ويأس شديدان . . لقد كانت المسألة فى أول أمرها مجرد رغبة فى الهدوء ، ثم أصبح شبه إحساس بالخوف وبلزوجة فى أجساد الناس وكلماتهم ونظراتهم . . وأخيراً أدركت وأنا أعبر شوارع هذه المدينة أن هناك من يتبعنى وسط الزحمة ، وكان هذا أبعد مما وصلت إليه مخاوفى ، فأنا رجل مسالم لا أصدقاء لى ولا زوج ولا أطفال ، فلماذا يتعقبنى شخص أو أشخاص وأنا سائر فى هذه الزحمة الكريهة ؟ وهكذا نشأت لدى رغبتى المستمرة فى الانكماش والتضاؤل ، حتى أصبحت كأنى فأر فى مصيدة عليه أن يتجه إن يميناً وإن شمالا حتى يدمى وجهه وينهك عبثاً قواه . .

لقد كان كل أملى فى الحياة هو أن أعيش فى هدوء ، بعيداً عن كل صخب وضجيج ، ملتصقاً بعمل هادئ لا مجال فيه للمغامرة والمقامرة ، وظيفة ذات أجر ثابت ، حيث تتبلور كل آمالى أن يزداد أجرى جنيهاً أو جنيهين كل بضع سنين ، لهذا نفضت يدى من الحب وتحاشيت الزواج ، وتجنبت أسرتى منذ زمن بعيد ، وحاولت أن أختار مسكناً هادئاً وخادمة مطيعة فى منعزل عن الناس ، ومضيت أدير شئون حياتى بأقل قلق مستطاع ، لكن ها قد ذهبت كل محاولاتى أدراج الرياح ، وبالرغم من كل هذه المحاولات فقد وجدت أخيراً من يتتبعنى فى شوارع المدينة وأزقتها ، ومن يعرف كل أسرار حياتى ،

ومن يحاول أن يسد على كل منافذ الخلاص ، ويتدخل فيما حرصت أن أخفيه عن كل إنسان . . حتى وضعت أخيراً فى مكان مظلم تذهب فيه الخفافيش وتجىء طولا وعرضاً وصعوداً وهبوطاً . .

سأعلن على الجميع أنى ما أردت يوماً أن أكون بطلا ولا رجلا مشهوراً ، وسيكون شهودى على ذلك هم أولئك الذين شاهدونى لآخر مرة فى هذا المساء ، وسأستشهد بالبائع المتآكل الأنف ، وبالحسناء والشاب الذى يحادثها كأنما فى حذر ، وبالسائق المذعور والمصاب الذى وطأته العجلات ، وبقاطعة التذاكر والسيدة التى تحك جسدها فى كآبة إلى جانبى ، وبالذين كانوا يتهامسون ، وبالذين كانوا يتلفتون ويتآمرون . . ثم أستشهد بخادمتى « نور » وبالقط الذى يموء وبالكلب الذى ينبح وبلون غرفتى الأزرق ، فكل هؤلاء معى ، وهم يدركون أن كل ما أردته هو أن أكون مطمئناً — ولا أقول سعيداً . . ولقد كانت طريقتى اليوم إلى ذلك هو ليفة أحك بها جسدى المتلبد ، وسأحلف بنوافذ بيتى السبع — التى دوّن عددها الأحدب — وبحق البطل الذى انتصر على الشاشة ، أننى حين اشتريت هذه الليفة ما كنت أدرك ما يترتب على ذلك من خطورة بالغة ومعركة مضنية . . سأشهد هؤلاء أمام الناس مكرراً أنى ما أردت أن أصبح عظيماً ولا زعيماً . . ولا غنياً . بل مواطناً تطمئن أقدامه للخطوة التالية . . وأنا أعلم أن هذا هو موطن الضعف الوحيد فى دفاعى ولكنى سأدافع عن نفسى حتى نهاية النهاية . .

فبراير ١٩٥٢

لمحات من حياة
«موجود عبد الموجود»

وملاحظتان



« الحاضر وقت مصلوب فوق الوقتين ، لأن
الماضى حدد مصير المستقبل وهو محاصر بينهما ،
لا يستطيع الفكاك من أيهما »

انطفأت الشمعتان : البنت وأمها ، زوجتى وعشيقتى ، لم يبق إلا المداس .

أنا مدرس فلسفة ، كنت طالب فلسفة ، منذ مدة طويلة. ولكن فلنبدأ القصة من آخرها .

أنا فى الغرفة وحدى ، غرفة واحدة وحيدة فوق سطح فسيح ينشر فيه السكان ملابسهم المغسولة على حبال امتدت بطوله فى غير نظام ، تتقاطع حيناً وتتوازى حيناً فتصنع المثلثات والمربعات . ليس فى غرفتى أثاث كثير : مقعد أجلس على قاعدته وأعلق « بدلتى » على مسنده ، منضدة للكتابة والأكل ، « كنبة » كان يجلس عليها ضيوفى نهاراً وأنام عليها ليلا ، كوب أشرب فيه أحياناً وأضع فيه أزهار البازلاء التى أحبها أحياناً . كل شىء مزدوج الفائدة فى غرفتى ، حتى الصحيفة التى يلقيها البائع كل صباح تحت عقب الباب أتتبع منها أخبار اتهامى ثم أجعل منها مفرشاً لمنضدتى . ولكن فلنبدأ القصة من آخرها .

يا رعبي من الليل ، يا لكآبة الليل ، ليس الليل فى أوائله ، مشكلتى مع الليل فى أواخره ، فأنا أهرب من خوفى فى أوائل الليل ، إذ يهبط على نوم ثقيل بعد تناول طعام العشاء مباشرة مهما كان خفيفاً ، كأنما تناولت مخدراً أكيد المفعول . غير أنى ما ألبث أن أكتشف أنى كنت ضحية خدعة سمجة ، إذ أصحو فزعاً فى الثالثة أو الرابعة صباحاً حيث يصبح صمت الليل أعلى من ضجيج النهار : نباح كلب ، نقيق ضفدع ، دقات ساعة ، أشياء تنكسر ، أقدام تدب ، وتوقع شر يوشك أن يقع ولا يقع لكنه سيقع . ويطوف بى هاجس أن ضع حداً وحلاً لما أنت فيه ، افتح نوافذ غرفتك — عندما يزدحم النهار بنور الشمس وتزدحم الساحة بخلق الله — لتعلن جريمتك . بل الأفضل أن أتسلل بلا ضجة إلى مركز الشرطة لأعترف . لكن بماذا عساى أن أعترف ، هل أعترف بأنى لست واثقاً على وجه يقينى أبداً بما أعترف ؟ لكن هل تراهم ينتظرون حتى أذهب بنفسى ، لعلهم قادمون ، وإلا فلماذا ينبح كلب وتدب قدم . ياالهول الأرق والقلق . الفجر خلاصى من عذابى ، صياح ديك ، شقشقة عصفور ، وينزاح كابوس الظلمة .

فى صباح يوم ما ، منذ زمن غائر فى الزمن ، كنت أهبط السلم فى طريقى إلى كليتى ، عندما ترامت إلى أنفى رائحة عفنة . ظننت أول الأمر أنها تنبعث من قط أو كلب ميت أو ربما من فأر ألقاه أطفال العمارة فى بئر السلم . غير أن اختفاء الشيخة مديحة منذ



أيام أثار ريبتى ، وهى التى كانت تملأ العمارة والحارة والحى كله حيوية وضجيجاً . عدت أصعد درجات السلم التى كنت قد هبطتها لأطرق باب شقتها ، غير أن أحداً لم يستجب لطرقاتى . عبثاً حاولت أن أدرك الحقيقة من خلال الباب المغلق : وضعت عينى فلم أر شيئاً ، أرهفت أذنى فلم أسمع شيئاً . أنفى فقط استطاع أن يلتقط رائحة أقرب إلى رائحة الجريمة . قررت أن أسرع إلى مركز الشرطة لأطلعهم على مخاوفى ، فقد كانت تربطنى بالشيخة مديحة – قبل أن تستشيخ منذ أسابيع – أكثر من صلة .

حين صارحتها أن عيون الناس مفتوحة ولا معنى من إلصاق تهمة نحن منها براء ، كان جوابها ضحكة كأنما قلت نكتة :

– لماذا لا تتزوج ؟

– ما زلت طالباً .

– ولا تملك نفقات زواج ؟

– ولا وقع اختيارى على عروس .

– العروس أمامك ، ونفقات الزواج مكفولة ، والمسكن مهيأ .

هكذا عرضت على الزواج لكن بابنتها . هذا رد مفحم على تقولات الناس ، هذا تفسير لا يخطر على بال إبليس نفسه لسر الزيارات المتبادلة ، وهو إزالة نهائية لمخاوفى . ما على إلا أن أهبط من غرفتى العلوية إلى شقتها زوجاً لابنتها أمام الناس وعشيقاً لها أمام الشيطان . يا للفراش الآثم ، يا لضحيتنا المسكينة ، يا للمجنونة تكتسحنى وتكتسح ابنتها أمام نزواتها .

وأنا سعيد بالعصفورين أردد نشيدى الفلسفى : أنا خائف إذن أنا موجود .

فى طريق عودتى مع الشرطة ، كان ثمة أمل أن تكون مخاوفى مجرد وهم ، فنجد الباب مفتوحاً والشيخة مديحة واقفة تصد الشرطة عن الدخول ، فوقوع أمرسيئ للشيخة مديحة سيسبب لى متاعب لا نهاية لها ، وسيوجه الاتهام أول ما يوجه إلىّ .

عندما استدعيت أمام المحقق كنت أرتجف رهبة . سردت موجز علاقتى بالشيخة مديحة منكراً ومستنكراً أية صلة آثمة لى بها . وكان بعض الشهود الفضوليين قد أطلعوا المحقق على احتمالات من هذا القبيل. اعترفت أنى دفعت لها ديناً علىّ ظهر الخميس .

— أى دين ؟

— دين اقترضته منها يوم زواجى بابنتها .

— كم أعطيتها ؟

— جنيهين قسطاً أول .

أما معركتى معها فلم أشر إلى شىء منها . قطعة من مداس ابنتها كانت تستلقى بلونها الأحمر الباهت أمامنا على مكتب التحقيق . سألنى فجأة عن بقيتها ، أنكرت معرفتى بشىء عن مصيرها . لو ضيق على لاعترفت على الفور ، فأنا لا أجيد الكذب ، هذه إحدى رذائلى ، ما أخفيه بلسانى تشى به انفعالاتى .

ولقد وقع ما كنت أخشاه : فالباب لا يزال مغلقاً ، وقد تجمع

الجيران أطفالا وسيدات أمامه يتشممون الحدث . وعندما اقتحم رجال الشرطة الشقة وجدوا بقايا الشيخة مديحة على فراشها تنبعث منها رائحة تزكم الأنوف . فهبط قلبي وتخلخت ركبتاى ، وشملنى دوار عنيف . غير أنى تماسكت ، لمحت الجميع وقد سدوا أنوفهم بمناديلهم أو أصابعهم ففعلت مثلما يفعلون ، وتساءلت مثلما يتساءلون : أترى فى الأمر جريمة ، وإذا كانت هناك جريمة فمن هم المتهمون ومن هم الشهود ، وهل ترانى سأكون شاهداً أو متهماً . وإذا اتهمت فإلى أى حد يصل اتهامى . هل تراه يصل إلى حد إدانتى ؟

فى الصيف السابق ، فى بداية العام الرابع والأخير لدراستى ، أقبلت مع سمسار أبحث عن غرفة تؤوينى . فى أول عام كنت كالتائه فى زحام القاهرة ، أقمت مع ابن عمى ، أتوكأ عليه وأنا أستكشف خفايا المدينة الكبيرة وأتعثر فى منحنياتها ، مزوداً بنصائح أبى ودعوات أمى وما يقتطعانه من قوتهما وقوت إخوتى . اكتشفت أن لهجتى ومخارج الحروف من فمى تعرينى أمام زملائى وزميلاتى القاهريين . واكتشفت — لدهشتى — أن هؤلاء الزملاء والزميلات يتحركون معاً ببساطة وبلا حرج . تمنيت أن أفعل مثلما يفعلون . كان ينقصنى شيئان : موهبة أو دربة ، وقليل من المال . فانزويت وانطويت .

فى الصيف السابق تزوج ابن عمى ، عدت من قريتى فوجدت عروسه الحلوة القاهرية الصغيرة تحتل الشقة بأثاث لامع براق ، وقد كومت سريرى ومقعدى ومكتبى وكتبى فى ركن منزو . فخرجت

أبحث عن مكان يؤوينى حتى عثرت على غرفتى .

فى الصيف السابق اكتشفت أنى من خلال ثقب الباب أستطيع أن أستعرض نساء العمارة المتواضعة وهن ينشرن الغسيل : ملابسهن وملابس أزواجهن وأطفالهن . فى صباح كل جمعة كانت مديحة تنشر غسيلها . لاحظت أنها لا تنشر إلا ملابس نسائية ، ليس بينها ملابس رجال أو أطفال . كانت هذه هى معرفتى الثانية بها ، معرفتى الأولى كانت يوم اتفقت معها – وفى شقتها - على تأجير غرفتى . يومها لاحظت أنها فى الأربعين وابنتها إلى جانبها فى العشرين . لكن حين أقبلت تسألنى عن غسيل لها مفقود بدت فى الثلاثين . كانت تمضغ اللادن وتلفحنى برائحة عطرة نفاذة ، ثوبها بسيط وإن كانت ألوانه زاهية ، ليس فيه تكلف الحشمة ولا خروج عليها ، كلماتها قلائل فى جرأة وفى أدب ، ومع ذلك أحسست أن هناك دعوة خفية منها موجهة إلىّ تنبعث من عطرها ولادنها وثوبها ومن جرأتها المؤدبة . فى الليل – وأنا ما بين اليقظة والنوم – رأيتها تخطر أمامى على حين توارت زميلات تعودت أن أستعرضهن كلما انتابنى أرق ذات ليلة .

فى المرة التالية أطالت الوقوف فى حين كانت ابنتها زينب تجمع الغسيل . استفسرت عما يضايقنى فشكرتها ، وإن كنت بدأت أفكر فيما يضايقنى أو قد ينقصنى . تجربتى فى القرية والبندر أولا ، ثم مع زملائى وزميلاتى فى الكلية ، علمتنى أن أتهيب الناس وأتحاشاهم ، لكنى لا أتعلم . حاجتى إلى الآخرين تدفعنى نحوهم ، وتشككى فيهم يدفعنى عنهم .

زينب لم تكن فى حيوية أمها ولا جاذبيتها ، وإن كان شبابها يفيض حلاوة هادئة . لاحظت أنها تغادر منزلها وتعود فى فترات مختلفة من اليوم ، أحياناً ظهراً ، وأحياناً مساء ، وأحياناً تخرج ليلا ولا تعود إلا صباحاً ، مما لم أستطع له تفسيراً : غير أنى علمت فيما بعد أنها تعمل ممرضة فى مستشفى . أمها قالت متبسطة فى الحديث معى : لست أخشى عليها لا من المرضى ولا من الأصحاء أطباء كانوا أم ممرضين . فهى — مثل المرحوم أبيها — عواطفها هادئة ، أقصد جامدة خامدة . تصور أنها اجتازت مرحلة المراهقة كأنها جبل من الثلج . زوجها سيطمئن على شرفه تماماً دون أدنى مجهود من جانبه هئ . . هئ . هئ . . زينب ورثت أيضاً شكلها — كما ورثت طباعها — عن المرحوم والدها . منذ عشر سنوات مات وترك لى البنت وهذه العمارة نصيبى فى الميراث والدنيا .

تصرفات البنت المتحفظة بدت لى كأنها احتجاج صامت على مرح الأم وانطلاقها ، لكن الإنسان المستأنس فيها يتحول إلى حيوان شرس إذا سمعت كلمة سوء عن أمها . سمعت صوتها يعلو أول مرة مع إحدى الساكنات وأنا أصعد السلم فى طريقى إلى غرفتى فلم أصدق ما سمعت وما رأيت . حين علمت السبب تحققت مخاوفى . كانت تدافع عن سمعة أمها ، وتدافع — وياللمفاجأة — عن سمعتى . سمعتها تلوك اسمى لأول مرة على لسانها فبدا كأنه اسمى وليس اسمى : موجود عبد الموجود .

إذن بدءوا يتقولون ، ولعلهم يتنبأون، فليس فى الأمر بعد شىء مما يظنون ، وأرجو ألا يكون . على أية حال هذا ما كنت أتوقعه وما كنت أخشاه ، ولقد صح توقعى ووقع ما أخشاه . حذرتها فما استمعت لتحذير ، جرأتها تخيفنى وتغرينى ، تقصينى وتدنينى . تهمة لها أساس وبلا أساس . زارتنى فى غرفتى ، زيارة بدت غير مقصودة ، وأنا أعلم أنها لا يمكن إلا أن تكون مقصودة . كانت فى الفجر قبل أن يطرق السطح طارق . . لكن مالى أخلى نفسى من المسئولية وكأنى طوردت ووقعت دون أن أسعى إلى ذلك سعياً أخفى من سعيها وأدق . فقد سبقتها ومررت بها أسألها عن رسائل قد تكون وصلت من البلد ، لكنى وجدت زينب بدلا منها . أجابتنى فى كلمات مقتضبة إن شيئاً لم يصل . غير أنى عاودت الكرة حين حل أول الشهر ، لا لأدفع الإيجار – فالنقود لم تصل بعد – بل لأعتذر لها عن عدم دفعه ، وأنا أرجو دعوتها وأخشاها . أخشى ما يتلو الدعوة من دعوات ، وما يتلو الدعوة من تقولات . وحين أعلنت لها أن عيون الناس مفتوحة ولا معنى من إلصاق تهمة نحن منها براء كان جوابها ضحكة كأنما قلت نكتة .

يا لهيبة الجسد النسائى ، أنا تلميذ قروى فى مدرسة البندر فى أول درس فى أول يوم . أنا طالب قادم من الأقاليم فى جامعة القاهرة فى أول لحظة فى أول يوم . على أن أعيش الإقدام والإحجام ، أن تعلم وأن أعتاد ، أن أكتسب شيئاً وأن تظل كامنة فىّ أشياء ،

كانت معلمتى قديرة خبيرة تستأنس الحيوان البرى الوجل . أسمع طرقات على الباب ، تفسد متعتنا ، لا أجد إلا الريح ، نواصل ما انقطع ، وأنا منزلق فى الكهوف السحرية ، أخفى خوفى فى مصدر خوفى .

البيت يطل على الساحة ، الساحة فيها مولد ، المولد فيه سبعون ألف إنسان ، لكل إنسان سبعون ألف يد ، بكل يد سبعون ألف مداس ، بكل مداس سبعون ألف شمعة . وهم يتمايلون وينشدون : عملنا المحظور ، وقع المقدور ، أنت الغفور .

فى ليلة الزفاف نقلت كتبى من الغرفة العلوية إلى شقة العروس ، واحتفظت بأثاثى المزدوج الفائدة فى الغرفة . قدمت لعروسى بضع هدايا متواضعة : زجاجة عطر وثوب ومداس قطيفى أحمر . المداس أرخصها وهو الذى نال – وياللدهشة – إعجاباً كبيراً . احتضنته وقبلته ، والآن أدركت أية نبوءة مشئومة كان يحملها إعجابك ياعروسى . أما والدى فقد خشيت أن أبلغه .

للغرفة باب ، للباب ثقب ، للثقب مفتاح . كانت حريصة تغلق الباب وراءها بالمفتاح ، وكنت أكثر حرصاً فأبقى المفتاح فى الثقب يسده ويسد من ورائه عين زينب إذا أرادت تلصصاً . أين المهرب من عيون الناس . أغلقنا عيون الغرباء لنفتح عيون زينب .

زينب تعودت أن تحمل معها نسخة من مفتاح البيت لاختلاف مواعيد عملها . بعد الزواج استمرت على ما تعودت عليه حتى لا نوقظ

شكوكها "وهى التى وصلتها همسات الناس . ترك المفتاح ، مفتاح باب البيت معها ، خط دفاعنا الأول . ترك المفتاح ، مفتاح باب الغرفة فى ثقبه ، خط دفاعنا الثانى . نقط الضعف واضحة فى الدفاعين : من الأول تستطيع أن تتسلل ، من الثانى تستطيع أن تفجأ وتفجع .

المداس وجدناه عند باب الغرفة ، وعويل النساء وصراخ الأطفال فى أسفل الحارة . واللذة الآثمة تحشرجت ، والذعر . . إذن فقد ثقبت الباب بأذنيها ، رأت بهما ما حجبناه عن عينيها . فى التحقيق تبين أن زينب ألقت بنفسها من فوق السور ، سور السطح ، السطح الذى به غرفتى ، حافية القدمين ، جاحظة العينين . ولول الغرباء المزدحمون : هذا من هول الصدمة ، صدمة الوقوع من أعلى إلى أسفل .

سر المداس لم يعرفه أحد غيرى ومديحة . حاولت أن أضعه فى قدمى عروسى وهى جثة نودعها القبر ، غير أن أمها — وقد برقت عيناها بلمعان مخيف — أبت إلا أن تحتفظ به لنفسها . عندما أقبلت المعزيات مساء وجدنها تضم المداس إلى صدرها وتقبله .

فى اليوم التالى طردتنى من شقتها . كنت أنوى الانسحاب إلى غرفتى العلوية دون انتظار أية إشارة منها . عنفها روعنى وحجتها أدهشتنى :

— زوجتك ماتت وبقاؤك فى شقتى خلوة محرمة .

حسبت أنى أتلكأ فصاحت :

— أخرج بالحسنى وإلا استدعيت الشرطة .

وكما أنزلنى الخوف أصعدنى الخوف .

تعودت أن أمزق أوراقى أولا بأول ، خطابات والدى ، صورة المرحومتين زينب ووالدتها مديحة ، مذكرات أساتذتى ، حتى كتبى الدراسية والدفاتر التى أعد فيها دروسى لألقيها على طلبتى تخلصت منها ، فقد يكون فيها ما يدينى وأنا لا أدرى . غير أنى عثرت بمحض المصادفة على محاولة شعرية فلسفية أفلتت من التمزيق مع أنها تستحق الدمار ، لأنى أولا لا أعرف شيئاً عن أوزان الشعر ، ولأنها ثانياً لا تدل على أية موهبة . وأعتقد أنها لهذا السبب كانت المحاولة الأولى والأخيرة . أما تاريخ كتابتها فلا أذكره . على أية حال سأمزقها بل سأحرقها لتلحق بما سبقها .

فى ليالى المولد خرجت مديحة ، منفوشة الشعر ، مرقعة الجلباب ، حافية القدمين . فى كل يد وضعت مداساً ، فى كل مداس وضعت شمعة ، بكل شمعة أشعلت شعلة . ومضت تهمهم بكلام لا هو بالهمس ولا هو بالصياح : عملنا الآثام وعينك لا تنام ، فانتقمت يا رب الأنام شر انتقام . ثم تصرخ : رأيتكم . . . ضبطتكم . . . أنت وهو .

الغموض على شفا الوضوح ، السر يوشك أن يصبح فضيحة . كلما ولجت الحارة ، كلما صعدت العمارة ، قدمت قدماً وأخرت أخرى . انفض المولد والشيخة مديحة لا تزال تجوب الشوارع . فوق رأسها صينية ، فى الصينية المداسان ، فى المداسين الشمعتان ، بالشمعتين شعلتان . والناس فريقان : فريق كلما رأوها يتعجبون ويعجبون ، ويتهيبون ويتبركون . وفريق كلما رأونى — وبدون أن يرونى — يتقولون ويتهامسون .

مخاوفى تركزت الآن فى المداسين ، فى لونهما الأحمر وملمسهما

القطيفى وما تبقى فيهما من رائحة القدمين وأصابع القدمين . رأيتهما فى منامى يتحركان — كأن إنسياً يضعهما فى قدميه — ويتجولان بحرية على جدران غرفتى ، وكلما بلغا سقفها سقطا فوق رأسى فأنفضهما بعيداً وأنا أنتفض خوفاً ليعاودا رحلتهما . استيقظت مفزوعاً لأكتشف أن البول احتبس فى مثانتى .

لو انتزعتهما لانتزعت سرى من هذه المرأة المجنونة ، تهددنى كلماتها كل يوم بما يفضح دون أن يفصح . هممت أكثر من مرة — عندما كان يتصادف لقاؤنا وأنا أخوض غبار الحارة صيفاً وأتدحرج على زلقها شتاء — أن أهجم عليها لأنتزعهما منها ، لكنى كنت أخاف خوفى ، فيصبح الغموض واضحاً والسر فاضحاً . لو كانت تتركهما فى شقتها لحظة لتسللت إليها وسرقتهما ، لكنها ما كانت تخرج إلا بهما ولا تعود إلا بهما .

ذات مساء طرقت بابها ، عندما لمحتنى جحظت عيناها وصوتها كالفحيح : إياك أن تقترب . . أنا أعرف لماذا جئت .

ثم أسرعت إلى كنبتها الممتدة فى الصالة حيث يرقد المداسان ، واختطفتهما واحتضنتهما وأنا أتصنع الهدوء ، محاولا أن أجعلها تهدأ بدورها وهى تسمع إجابتى :

— جئت أعلن تنازلى عن نصيبى فى الميراث .

— كذاب .

— وأعلن أنى عثرت على غرفة أخرى .

بوغتت لحظة ، ثم لوحت بالمداس وهى تقول :

— لن تهرب من عين الله .

أعادت المداس إلى حضنها وهى تحرص على أن تظل المسافة ثابتة بينى وبينها على حين كنت أقوم بدراسة الموقف وأنا أواصل حديثى :

— وجئت أسدد جزءاً مما علىّ من دين لك .

— ديونك كثيرة وأنت مفلس .

مددت يدى بالنقود ، فمدت يداً تتناولها بها وتشبثت الأخرى بفردتى المداس ، هذه فرصتى ، هذا المداس سرى وعدوى ، خوفى وهمى ، أنا الذى اشتريته وأنا الذى أهديته فهو منى وإلىّ . لماذا إذن يستولى عليه غيرى يهددنى به ويفضحنى .. دفعتنى فى صدرى بيد واستماتت بقبضتها الأخرى على المداسين . طالما قبلت هاتين اليدين رخصتين بضتين طريتين ، والآن نبتت لإحداهما مخالب لبؤة تدافع عن شبلها ، والأخرى لمحت ظهرها قريباً من عينى نافر العروق كأنما أراه من خلال مجهر ، قريباً من فمى حتى أغرانى أن أعضه بل أقضمه . لكن يبدو ألاّ سبيل الى انتزاع كنزها المسحور من مجرد معركة محلية مع اليدين ولا سيما أن صراخها يوشك أن يفسد خطتى . اضرب الرأس تتراخ اليدان . هل مضت ثانية ؟ هل مضت ثانيتان ؟ المداس فى يدى ، سرى معى . أقفلت بابها خلفى وهرولت إلى غرفتى . كنت واثقاً أن أحداً لم يرنى لا على السلم ولا على السطح . وها هو ذا المداس الملعون أمامى أتأمله جيداً لأستوثق من وجوده معى . لكننى اكتشفت — ويا لهول ما اكتشفت — أن وجوده

كله لم يكن معى . كانت هناك قطعة صغيرة منه — من المداس الأيمن ومن الخلف من جهة الكعب على وجه التحديد — قد انتزعت حديثاً منه بلا رحمة . لا شك أننى أرغمت على تركها — دون أن أتنبه — فى قبضتها وأنا أهرول خائفاً فرحاً من شقتها ، حاسباً أن انتصارى عليها كان كاملا ، وأننى سلبتها نهائياً سلاحها ضدى . ولكن هاهى ذى ما تزال تحتفظ فى إغفاءتها بجزء من الكل الذى حسبته معى .

لمسته فبدا أقل نعومة ، فبعض وبره قد نحل ، شممته فإذا برائحته الآن رائحة شمع ذائب أو محترق مختلط بعبق بخور أو عطور . لم يكن هناك وقت للتردد أو الاختيار ، علىّ الآن أن أتخلص من بقايا هذا العدو الملعون قبل أن تستيقظ المجنونة من نوبتها وتدهمنى مطالبة بما لا حق لها فيه . ولئن كان المداس فى يدها عدوًّا خطراً ، فهو الآن فى يدى عدو أخطر .

فى أثناء مرضى ظهرت فردتا المداس الحمراوان تطاردانى على جدران غرفتى من جديد . مرة فى الفجر وأخرى قبل حلول المساء . وبرغم أنى رأيتهما بوضوح شديد فى المرتين حتى إنى تأكدت من القطعة المنزوعة من الفردة اليمنى من الخلف ومن جهة الكعب تماماً ، إلا أننى أدركت أن هذا قد يكون من تأثير الحمى ، مجرد هذيان ، وعلىّ أن أتشبث بواقع غرفتى : جدرانها وبلاطها وسقفها ، المنضدة والكنبة والمقعد وكوب الماء . فقد خشيت أن أفقد صلتى بهذا العالم فلا أعود إليه أبداً .

يومها اكتشفت أنى اخترت السرطان مرضاً أخيف به نفسى وأخاف

منه على أحبائى . وكان اختيارى لهذا المرض لميزات ينفرد بها من دون جميع الأمراض . فهو يكاد يكون الداء الوحيد الذى لم يكتشف له الطب سبباً ولا علاجاً حتى اليوم ، وهو يصيب جميع الأعمار ، ويتسلل إلى الجسم فى أى مكان، فكل ألم، بل مجرد اضطراب بلا ألم، قد يكون إنذاراً بطلائع هذا الداء الخبيث . أما آلامه — فى معظم حالاته — فهى أفظع الآلام وأمرها .

يومها تضاعف إحساسى بوحدتى ، يومها اكتشفت اكتشافين : أولهما أنى لا أهاب الموت ، وثانيهما أن عدم تهيب الموت لا يعنى — كما كنت أتصور — عدم تهيب ما قبل الموت . فلقد تضاعف خوفى من الألم ومن الحاجة ومن كرامتى أن تهان ، ولقد تماثلت يومها للشفاء سريعاً إلا أن شبح المرض لا يزال يرعبنى ، ويرعبنى منه أن يقودنى إلى عالم الأوهام والهذيان .

يومها اكتشفت أن مخاوفى امتدت لتشمل كل جوانب حياتى : خوفى من أن يقعدنى مرض لا قيام منه ، أن يموت والدى أو والدتى ، أن يكتب عنى ناظرى أو مفتشى تقريراً سيئاً .

بعد تماثلى للشفاء اكتشفت أن الوهم فى مخاوفى تجاوز الواقع ، مرضت وشفيت ، تعرض والدى لحادث ثأر فى البلد ومنه نجا ، لم يسئ إلى ناظر ولا مفتش ، ومنذ أطلق المحقق سراحى منذ مدة طويلة، ما استراب فى إنسان ولا استوقفنى ولا استجوبنى محقق . إذن فلأنفض الخوف ولأتحرك واثقاً مطمئناً ، يومها جرؤت وقمت بزيارة زميل فى بيته ،

وتناولت عشائى فى أرقى مطاعم المدينة ، وعند عودتى إلى غرفتى جرؤت وفتحت نوافذها ونزعت المفتاح من ثقب الباب ، واستغرقت — لأول مرة منذ سنوات طويلة — فى نوم عميق بلا أرق ولا قلق ، يداعبنى ضوء القمر وينعشنى نسيم الليل .

غير أنه حدث بعد تماثلى للشفاء بحوالى أسبوع أن وصلتنى برقية تعلننى نبأ وفاة والدى فجأة وبلا مقدمات ، لحظتها أصابنى ندم عميق ، أدركت أن خوفى عليه كان يحميه ، وأننى آثرت طمأنينتى وتخليت عن حمايته ، فأتحت للموت فرصته الذهبية ، غافلنى واختطفه منى ، هكذا عوقبت على طمأنينتى ، ويومها أدركت أن مكافأتى على خوفى ألا يتحقق شىء مما أخاف منه ، فإذا تحقق كان وقعه أبسط بكثير مما ضخمته التوقعات والأوهام .

من يومها إذا اطمأننت خفت وإذا خفت اطمأننت ، إذا اطمأننت تشاءمت وإذا خفت احتميت وحميت . من يومها يقلقنى ألا أجد ما يقلقنى .

عندما ضربتها على رأسها وقعت وسط الصالة . عندما دخلت مع الشرطة كانت جثتها المتعفنة متكورة فوق الكنبة . النقود التى أخذتها منى ظهر الخميس لم تكن فى قبضتها ولا مبعثرة على الأرض . بعد أيام جاء تقرير الطبيب الشرعى يقرر أن الوفاة وقعت صباح الجمعة . من يومها وأنا أتحرك ما بين وسط الصالة والكنبة ، وما بين ظهر الخميس وصباح الجمعة . هذا مكانى وهذا زمانى .

لو ارتاب المحقق فى كلماتى لحظة واحدة لسردت عليه كل شىء، ولتركته يحدد بنفسه — على ضوء ما أمده به من وقائع— مدى اتهامى ومدى براءتى ، لكنى تركت كل شىء معلقاً فوق رأسى ، لا أنا برئ ولا أنا مدان . وهكذا أصبح يخيفنى ما يخفينى .

حين أختلف مع زميل أو رئيس لا أجرؤ على أن أدع الخلاف يمتد إلى نهايته فيصبح شجاراً أو قطيعة ، فمن يدرينى ، لعله اطلع بطريقة ما على سرى المقيت ، فيهتك فى لحظة ما بناه جدار الخوف يوماً بعد يوم ، ويهدم فوق رأسى ما حصنت به نفسى عشرات السنوات ، وينزع عنى وجهى المستعار الذى أفرزته كمحار القوقع . . كغطاء السلحفاة خلال تعاقب الليل والنهار ، وتوالى الثوانى والدقائق ، فيذيع أننى موضع شبهة لا شبهة فيها . لهذا ماألبث أن أتراجع قبل أن أوقظ شكوكه فينبش ماضى ليصيبنى فى مقتل .ما أزال أذكر الرعب الذى انتابنى حين اختلفت مع زميل ذات يوم ، ثم علمت أن له قريباً كان يسكن فى حارة الشيخة مديحة ، فمع أنه لم يشر أية إشارة فى أثناء خلافى معه إلى قضيتى ، ومع أننى اصطلحت معه فى اليوم التالى ، إلا أننى سعيت للنقل من تلك المدينة فى اليوم نفسه الذى تم فيه الصلح ، ولم أهدأ حتى نجح مسعاى .

يومها أدركت مدى ما وصل إليه ازدواج شخصيتى بسبب قضيتى ، وهو ازدواج بدت طلائعه السرطانية ذات لحظة مجهولة من تاريخ حياتى ، لعله يوم أخفيت نطقى الريفى عن زملائى القاهريين ، ولعله كان قد تمكن منى يوم هبطت من غرفتى إلى شقة الشيخة مديحة ، ولا شك أنه كان

قد استشرى يوم وقفت أمام المحقق فذكرت له نصف الوقائع وأخفيت وأنكرت نصفها الآخر ، وهأنذا اليوم أجدنى ضحية صراع مرير بين رأى لا أفعله وفعل لا أراه ، وخجل أكثر مرارة لأنى أظهر غير ما أبطن .

عندما زارتنى إحدى قريباتى ذات مساء ، وهى مطلقة تأمل فى الزواج منى (وكنت أفكر – قبل زواجها وطلاقها – فى الزواج منها) كانت تكشف عن مفاتنها فى دعوة سافرة لا غموض فيها حتى توهجت رغبتى ، غير أنى قبل أن أقطع نهاية الشوط إليها كان التوهج قد خمد وهى تنظر إلى – كما كنت أنظر إلى نفسى – فى حيرة وتساؤل . فقد بدا لى أنه لا يشغلنى عنها شاغل . وأننى سعيد بأن ألقى مثل هذا الاهتمام والتقدير من أنثى مشتهاة ، فلا أقل من أن أبادلها تقديراً بتقدير . أما هى فقد عالجت الموقف بلباقة فائقة فلم تبد أنها كانت تتوقع أكثر من هذا التقارب العاطفى الذى بدا فى الهمسات واللمسات ، غير أنى حين خلوت إلى نفسى أدركت أنه لا بد وأن تكون مديحة وزينب ومداسهما والذين يصرخون ويهمسون ويشيرون والمحقق . . كل هؤلاء لا بد أنهم ترسبوا فى الطبقات الجيولوجية من أعماق يمارسون من هناك – ودون ملل – طقوس إخصائى السحرية لأحرم من نشوة البذر وفرحة الحصاد . فتأكد لدى ما سبق أن أدركته : أن ما أرغب فيه لا أحققه وما أحققه لا أرغب فيه ، وبين الرغبة التى لا تتحقق والتحقق الذى لا أرغب فيه يسقط وجودى .

أما أخوف ما أخافه فهو نجاحى أو تفوقى . فى العام الماضى نجح

جميع طلبتى فى جميع السنوات التى أقوم بالتدريس فيها . ولقد سعدت لتلاميذى ولنفسى ، غير أنى ما لبثت أن اكتشفت أنى ارتكبت جريمة كبرى ، عدها زملائى اعتداء شخصياً عليهم ، أقرباؤهم إلى قبل غربائهم عنى . لعلهم خشوا أن يقبل على تلاميذهم يتلقون منى دروساً خاصة فأحرمهم من دخل إضافى لهم ، مع أنى لا أعطى هذه الدروس إلا لأسباب ملحة وبطريقة غير منتظمة ومجاناً ، وكان هذا أيضاً مما يثيرهم . أرسلوا شكاوى إلى ناظر المدرسة ومدير المنطقة التعليمية ووزير التربية يتهموننى فيها بأنى أعطيت لتلاميذى أسئلة الامتحان قبل الامتحان. وعندما حقق معى تبين أنى لست واضع الامتحان ولا علم لى بأسئلته . غير أن ما كنت أخشاه حقاً أن يحدق أحدهم فى كثافات ماضى فيكتشف تهمتى فى قضيتى فيقضى على قضاء مبرماً . من يومها تعلمت أننى يجب أن أظل فى الظل ، وألا أكشف عن حماسى أو إخلاصى ما دمت لا أستطيع التخلى عنهما ، وأن أتمنى أن يرسب من تلاميذى تلميذ أو تلميذان إذا أردت أن أكون بمنجاة . غير أنى أدركت يومها أيضاً — ولحزنى الشديد — أن قضيتى ليست رهن إرادتى ، فقد ينجح كل تلاميذى على غير رغبتى ، فتبعث من جديد تهمتى . ومن يومها لم أعد أميز الخطأ من الصواب ، فقد أدركت أن غيرى هو الذى يقرر لى — ودون أن أستطيع التنبؤ أبداً — ما أستحقه من ثواب أو عقاب .

عندما سمح لى المحقق بالانصراف لم أصدقه ، كانت نظراته كلها ريبة ... سيوهمنى بالحرية ليحصل من تصرفاتى وحركاتى على ما يديننى ،

ولكن فلأكن أحرص منه ألف مرة ولا أحقق له ما يريد .

بقايا المداس ألقيتها — فى ليل ذلك الخميس وبعد أن حشوته بالحجارة — فى قاع المجرى القريب. قد يطفو فى أية لحظة فيطفو اتهامى، أو لعل صياداً ينتشله فيفتح محضر التحقيق من جديد لتثبت القرائن أن عنقى يستحق حبل المشنقة بغض النظر عن الحقيقة التى لا يعرفها أحد ولا حتى أنا .

ولقد حاولت أن أقتل هذه اللحظة من حياتى بمختلف الطرق ، لكننى اكتشفت أخيراً أننى لا أقتل إلا نفسى . اكتشفت مثلا أن معارفى فى تلك اللحظة يكونون جزءاً منها جيراناً كانوا أو أصدقاء أو أقرباء — مثل ابن عمى الذى كلف نفسه ووكل محامياً عنى فى أثناء التحقيق — فعزمت على تجنبهم نهائياً، فيعدوننى. ميتاً أو أعدهم ميتين ولقد نجحت فيما بدأت به لكنى فوجئت بما انتهيت إليه . فكلما تجنبت جاراً أوقريباً أو صديقاً أحسست أن جزءاً من وجودى تساقط ، حتى لا أكاد أتعرف اليوم على نفسى . معنى هذا أنى كلما حاولت الفرار فررت من نفسى دون أن أفر من مطاردى ، ودليلى على ذلك أنى نجحت سنوات طويلة فى تجنب كل من شاهد أوسمع هذه القضية فى حياتى ، غير أنى قابلت منذ أيام — ويا للرعب — محقق القديم ، ويبدو أنه أصبح قاضياً كبيراً سميناً . كان يجلس بأناقته وعطره فى صالون القطار أمامى . عندما لمحنى صاح بفرحة : هل من جديد فى قضية الشيخة مديحة ؟ حاولت أن أتوهم وأوهم الآخرين أن الحديث ليس

موجهاً إلىّ . غير أن نظراته كانت واضحة فاضحة لا سبيل إلى الفرار منها . فى هذه اللحظة اكتشفت أن وجودى مسجل على وجهى برغم ما نبت لى من شارب وما ابيض من شعيرات وما ارتسم من تجاعيد . همست بإيجاز شديد (تجنباً للفضيحة) : لا أعرف.

استطرد وكأنه يغنى :

— المهم الأدلة ، لا قيمة لما أنكرته فى أثناء التحقيق ولا حتى بما يمكن أن تعترف به . الاعتراف قد يكون منتزعاً ، وقد يكون بدافع التضحية إنقاذاً لشخص آخر . المتهم نفسه قد لا يستطيع أن يحدد بدقة — إذا أراد — ما ارتكبه ومالم يرتكبه . لهذا كان المحامى أهم من المتهم نفسه فى مصير أية قضية . المحامى يثبت أو ينفى الأدلة برغم أن المتهم هو شاهد نفسه الأول . المهم ...

فأكملت معه مردداً كأنما نحن فى جوقه :

— ... الأدلة .

جرؤت فسألته متخابثاً :

— إذن فهم لايزالون فى انتظار .. الأدلة .

أجابنى مستطرداً غناءه :

— ملفك باق ، وإن تغير المحقق والقاضى .

فى انتظار أية إضافة ، مهما امتد الزمان ونأت المسافة .

كنت أعلم إجابته قبل أن ينطق بها ، فقط كنت كمن يريد أن يتأكد من شىء يعرفه، ومع ذلك فإن إجابته أرعبتنى ، لهذا — ولئلا

يغنى من جديد – قررت ألا أتقدم إليه بأى استفسار آخر، لكنه أصر على مواصلة استجوابى : وإلى أين بإذن الله : فكرت لحظة أن أخفى ذلك عنه فأخفى جزءاً منى عنه ، لكننى خشيت أن تكون محطته بعد محطتى فيكتشف كذبى مما يؤدى بى إلى تهلكة محققة . لهذا لم يسعنى إلا الاعتراف بحقيقة وجهتى . بعد ذلك حاولت أن أتجنب الحديث معه غير أنه كان يرعبنى من حين لآخر بسؤال له علاقة – أو لا علاقة له – بقضيتى .

هجرت أصدقائى القدامى واستبدلت بهم صديقاً واحداً وحيداً يقف جداراً بينى وبين ماضى أحتمى به وأختفى فيه . غير أنى اكتشفت ذات يوم أنه يعرف محققى القديم ، فهو قريبه وجاره ، وقد يذكر اسمى أمامه على لسانه عرضاً كما ذكر اسمه أمامى فيسرد عليه قصتى محطماً ما حاولت أن أحتمى منه به ، وهكذا وقعت فيما حاولت الفرار منه ، فلولا صداقتى له ما كان محتملا أن يفلت لسانه باسمى . من يومها أدركت أنه بقدر ما يتعدد أصدقائى تتعدد احتمالات اتهامى ، فلست أدرى أيهم على صلة بمحققى القديم ، ولا أيهم موضع شبهة قديمة – مثلى – أو حديثة ، فيعرضنى – كما أعرضه – لمزيد من الشبهات . مما جعلنى أومن أن لا سبيل إلى الخلاص من أن تكون حياتى معاناتى ، ومجرد وجودى جوهر مأساتى .

وكان أعظم ما أربكنى حين رأى صديقى أن يكرمنى فقررت مقاطعته . فلقد دعانى ذات يوم إلى وليمة فى بيته ، وخلال حديثه فهمت

أن محقق القديم من بين مدعويه . وبينما كنت أرتجف هلعاً كان صديقي لا بد يظن أنني شديد الترحيب بما يتيحه لي من فرصة للتعرف على رجال ذوى نفوذ ، والتمتع بمشاهدة سيدات جميلات أنيقات ، وآنسات مرحات رشيقات ، أسكر بعبقهن وأنتشي بضحكاتهن . لهذا لم يفطن صديقي – وما كان يمكن له أن يفطن أبداً – إلى ما بدا على وجهي من كآبة سحيقة لا قرار لعمقها . ولشدة اضطرابي لم تواتني لباقة أو شجاعة للاعتذار . غير أني في موعد الحفل قلت لنفسي لابد أنك الآن مريض لا تستطيع تلبية دعوة صديقك . وهكذا قبعت في غرفتي مصمماً على أن أتجنب صديقي ما استطعت حتى لا يعرضني – عن طيب خاطر – لمآزق أشد خطورة . وإذا كنت قد نجحت في الإفلات هذه المرة فمن يدريني أنني مستطيعه في المرة القادمة . ولابد أن صديقي لم يجد تفسيراً لتصرفي مما أوقعه في الحيرة تماماً وربما لزمن طويل .

ذات يوم كنت أشرح درساً في علم النفس عندما فاجأني طالب يسألني : الحنين إلى رحم الأم أو الرغبة في العودة إلى المرحلة الجنينية (الصفحة الحادية والستون من الكتاب المقرر) دفاع عن النفس أم قضاء عليها ؟ ولئن تعودت أن أرتاب فيما يلقيه علي بعض الطلبة الخبثاء من أسئلة ، غير أن هذا السؤال – على غير العادة – أثار حزني العميق حتى كدت أبكي ولا سيما أنني لم أكن قد هيأت نفسي للإجابة عنه .

عندما جاء مفتشي ليكتب عني تقريره كان يضحك في ثقة . أعدت عليه سؤال الطالب :

— الجنين إلى رحم الأم ، دفاع عن النفس أم قضاء عليها ؟

اكتسى وجهه بالكآبة فجأة وهمس :

— انظر يا ابنى ، إنه دفاع عن النفس ، ينتهى بالقضاء عليها .

كان مفتشاً متعاطفاً متفهماً ، يختلف عن بقية المفتشين والنظار الذين عملت معهم ، لعله يتكلم من تجربة عاشها وليس من سطور فى الكتاب المقرر ، لهذا لم أهتم بما يكون قد كتبه فى التقرير عنى .

والآن ها هو ذا الليل يقبل فأشد رتاج نوافذى جيداً ، وأسد ثقب بابى بمفتاحه كما سددته قديماً . لا أتعلم ولا أعدل ، وأنام القرفصاء كما ينام الجنين فى بطن أمه ، ويا رعبى من الليل ، ومن كآبة الليل ، ويالهول الأرق والقلق فى غرفتى .

هى حصنى وهى مصيدتى ، أعرفها الآن بحواسى جميعها : ألوان جدرانها ونوافذها وبلاطها ، ما زال ثابتاً منها وما تغير . أركانها العنكبوتية تجاه السقف وأركانها الترابية تجاه الأرض . رائحتها عندما تظل مغلقة زمناً طويلا ، وعندما أطهو فيها طعامى ، وعندما أفتح دورة المياه الملحقة بها . حتى جدرانها السفلية أعرف مذاقها وملمسها : ملحية هشة بيضاء . ترق يوماً بعد يوم حتى ليفزعنى أن أجدها ذات صباح قد تآكلت تماماً ، فتنهار كل خططى من أساسها . أما أصواتها فإنى آلفها تماماً : أصوات خفية حذرة ، يرعبنى منها أن تنبعث من أماكن مجهولة ، تطمئننى محاولة تحديدها ، لعلها فأر يقضم بقايا طعام فى صفيحة القمامة ، أو لعله صرصار يمرح ويلهو فى دورة المياه .

وثمة أصوات أخرى بعيدة أو قريبة ، فوقها أو تحتها ، تتضخم فى هدأة الليل وظلمته ، قطان يتناجيان أو يتشاجنان، كلب ينبح ، قدم تدب ، أشياء تتكسر . وكما ألفت غرفتى فهى لابد قد ألفتنى بدورها ... دقات قلبى حين تعلو حتى لتشبه دقات طبل وحين تخفت حتى لتوشك أن تتوقف ، تنفسى حين يسرع وحين يبطئ ، وهى شاهدى على أرقى وقلقى ، وعلى أنى أدخلها عائداً من عملى فلا أغادرها إلا صباح اليوم التالى ، وعلى أنى لا أزور ولا أزار .

وهكذا — وفى سبيل الاحتفاظ بحريتى — صادرت حريتى ، فاعتقلت نفسى بنفسى ، عسانى أوفر جهد اعتقالى ، وشعارى بيدى أفضل من أن يكون بيد غيرى بل بقبضته ولكمته .

ملاحظة :

قرأت بحكم دراستى — ومن باب الهواية أحياناً — بعض القصص. أما تعاملى مع الكتابة فمقصور على ما كان يطلبه منى الأساتذة ، وما كنت أكتبه من خطابات لوالدى رحمة الله عليه الآن . وفى مرحلة الدراسة الثانوية كنت أكتب موضوعات إنشائية مسجوعة فأحصل على درجات طيبة . لا أزال أذكر أول موضوع إنشائى من هذا النوع ، كان فى وصف حريق ، وكانت بدايته على ما أذكر على النحو التالى :

« فى ليلة اشتد حرها ، وعدم نورها ، سمعت أصوات استغاثة عالية من منازل دانية ، فخرجت وأنا مذعور ، وليس معى نور ،لا أعرف

ما الحادث وما سبب الكارث ، وإذا شرارة نار ، قد اشتعلت فى إحدى الديار ، فجعلته هو والأرض سواء ، بعد أن كان متصلا بعنان السماء .. » .

هذا إلى جانب قصيدتى الوحيدة الناقصة الوزن والموهبة . تلك هى كل خبرتى بعالم الكتابة ، لهذا فإنى وإن كنت صاحب القصة فلست كاتبها . كاتبها هو صاحب التوقيع فى نهاية هذه السطور ، فلست من الغباء بحيث أسجل على نفسى كلمات — وإن كان يمكن أن تدل على براءتى فهى يمكن أن تدل على إدانتى . لهذا أخفيت عمرى وعنوانى ، أما اسمى ومهنتى فقد زيفتهما . تلك منافذ شخصيتى سددتها كما سددت الثقب بالمفتاح قديماً . لست هاوى قصص ولا طالب مجد ، كل ما من شأنه أن يعلن عنى أتوجس منه ، قد يكون قرينة ضدى تضاف إلى سجلى ، فى الحفلات المدرسية يذهلنى زملاء يتسابقون إلى استعراض ذواتهم خطابة أو إشرافاً على نشاط تلاميذهم ، فأشير نحوهم مشفقاً : ها هم يقدمون الدليل ضد أنفسهم بأنفسهم ، هاهم يدينون أنفسهم بأنفسهم. لهذا أتعمد الجلوس فى الصفوف الخلفية ، وحين يأتى المصورون أحرص على أن أخفى وجهى خلف الجالس أو الجالسة أمامى ، حتى لا يسجل وجودى ويصبح دليلا ضدى يوما ما . غير أنى حين اطلعت على إحدى هذه الصور ، وجدتنى أخفيت وجهى بطريقة لا خفاء فيها ، بحيث إن كل من يراها يكتشف ما حاولت ألا يكتشفه ، فأدركت أنه إذا كان وجهى يعرضنى للاتهام فإن إخفاءه يعرضنى لاتهام أشد . لهذا اعتكفت بعيداً

عن عيون الآخرين وآذانهم وأنوفهم ، فمجرد وجودى فى مكان متسع مزدحم إعلان عن نفسى ، وما يتلو الإعلان من تعرض للشبهات . ولهذا يربكنى ويرهقنى أن أجلس فى مقهى أو ناد ، حيث العيون اللزجة ترصدنى وتتفحصنى ، تغزونى وتشلنى ، وحيث الآذان المتلكئة التى عساها تتصيد شبهة أو شبه شبهة ، وحيث هناك دائماً من يتحسسنى ويتشممنى ، على حين أجد الآخرين يتحدثون ويزعقون ويلعبون ويصفقون ويقهقهون ويشربون ويأكلون ويقبلون وينصرفون ، وأنا أتساءل ترى أيهم المتهمون وأيهم الشهود ، أيهم المدانون وأيهم القضاة والمحققون والمدعون ، وأيهم مثلى لا هم متهمون ولا أبرياء ولا مدانون . وهكذا أصبح النجاح والشهرة وكل ما يتوهم الناس أنه يفرح الآخرين مصدر حزن لى وكآبة عميقين .

فى كل عام أقول هذا آخر عيد ميلاد لك تحتفل به قبل أن تعدم الحياة بلا احتفال ولا طقوس . فى كل شهر أقول هذا آخر مرتب تتسلمه قبل أن يسحق الرجل الذى أصبحته عقاباً على المراهق الذى كنته . فى كل أسبوع أقول هذه آخر مرة تستحم فيها قبل أن تدان على ما جاهدت للتخلص منه ، فبدا لهم أنك أوغلت فيه . وفى كل يوم حين أحلق شعر ذقنى أقول هذا آخر صباح تشهد فيه غرفتك قبل أن يقتحموا عليك خلوتك . وفى كل عام ، وكل شهر ، وكل أسبوع وكل يوم أجدنى موجوداً فأحمد الله لأننى ما أزال أتنفس جدران غرفتى دون أن أستطيع التنبؤ أبداً بمصيرى فى اللحظة التالية ، واللحظة التى

بعد اللحظة التالية . وكلما احتفلت بعيد ميلادى ، وتسلمت مرتبى ، واستحممت وحلقت أقول : ها أنت ذا الآن قد أصبحت مهيأ لاستقبال اللحظة التى تأتى ولا تأتى لكنها ستأتى . وهكذا يجدد خوفى كله دورة زمنية شبابة لا يهدأ ولا يصدأ .

ولكن حتى إذا استطعت ونجحت واحتفظت بخلوتى فى غرفتى ، فإنى أدرك جيداً أن وجودى الذى بدأ فى أول كلمة فى أول سطر قد أشرف على نهايته لأصبح مجرد ذكرى تم التعرف عليها لبضع لحظات ، كأنما فى أثناء وقوع زلزال أو غارة جوية أو تحقيق فى جريمة خطيرة ليضيع بعد فترة — قصرت أو طالت — فى زحام الأحياء والأموات .

ملاحظة بعد الملاحظة :

أنا خائف إذن أنا غير موجود .

يوليو ١٩٦٩ .


الزحـــام



أنا إنسان منضغط ، من قبل كنت سميناً ، كان ذلك منذ ثلث قرن ، حين كنت فى سنى مراهقتى ، كذلك كان أبى ألف رحمة عليه ، وأمى ظلت تحتفظ بشحمها ولحمها حتى آخر لحظات حياتها . فقد عاشا زهرة حياتهما فى الريف حيث الخلاء والفضاء يتسعان للسمان والنحاف . أما أنا فقد اضطررت — بين صخب المدينة وزحمتها — أن أتخلى عن سمنتى حتى أفسح مكاناً للآخرين وأجد متنفساً لى بينهم .

منذ ثلث ساعة وأنا واقف على محطة الأوتوبيس ، أحاول الركوب لأذهب وأستلم نوبتى ، فأنا محصل بشركة النقل الداخلى . لم يبق إلا ثلث آخر على موعد عملى . مر أوتوبيس لم يقف بالمحطة . كان متخماً بالركاب لا يستطيع أن يزدرد آخر . جاء ثان ، وقف هذه المرة ، انحشر الذين يريدون الهبوط مع الذين حاولوا الصعود ، وقف الجميع صامدين بلا تقهقر . . . أخيراً أفرز الأوتوبيس عدداً من الأذرع والأقدام ، وامتص عدداً آخر . حاولت أن أشق لنفسى طريقاً بين معركة الهابطين والصاعدين ، لكنى ما كدت أجد مكاناً لأطراف أصابع قدمى اليمنى حتى تحرك الأوتوبيس ، فترنحت إلى الوراء وأنا أكافح لئلا يختل توازنى ، ومع ذلك فإن شيئاً قوياً دفعنى فى صدرى فوقعت ، وقمت أمسح التراب عن ملابسى .

أنا فتحى عبد الرسول ، محصل وشاعر ، من قرية كوم غراب مركز الواسطى مديرية بنى سويف ، حيث أمضيت طفولتى بين الحقول المترامية والأفق الممتد حتى نهاية البصر . كان أبى يشترك فى حلقات الشيخ شعرانى ، فيهتز ببذاته المفرطة يميناً وشمالا ،وأنا أرقبه فى فرح ورهبة محاولا أن أقلده . ما أزال أذكر — فى لحظات خاطفة كالوميض — تلك الأمسيات التى كان يقرأ فيها — على ضوء مصباح خافت — قصة السيد البدوى أو أدعية شيخنا المتولى . كانوا يرشحونه لخلافة الشيخ شعرانى ، كان محبوباً من الجميع ، يقبلون يديه فى إجلال وينحنون ليقبلوا وجنتى فى لطف ومداعبة .

وأنا أخاف الزحمة وأتهيبها ،أخافها منذ اصطحبنى والدى معه إلى مولد سيدى أحمد النوتى ، وانضم إلى حلقة من حلقات الذكر يترعمها حتى نسينى تماماً، أما أنا فقد تمنيت أن أركب إحدى المراجيح ، ثم وقفت أتأمل مبهوراً حصاناً من الحلوى عليه فارس صغير ربما فى مثل سنى ، ثم مر بائع الطراطير تتبعته قليلا حتى أحسست فجأة أننى ضعت وسط الزحمة . ذهبت أعدو فى لهفة إلى حلقات الذكر المنتشرة فى المولد كلهم يشبه أبى وليس فيهم أبى . انفجرت باكياً وأنا أعدو مرتطماً بالناس ، محتمياً منهم فيهم ،خائفاً مذعوراً . لو كنت معه فى الحقل لرأيته على مسافة أبعد مساحة من المولد . لم ينقذنى يومها إلا واحد من قريتنا ، سمعته يقول : ابن عبد الرسول يبكى : مالك يا ولد . ثم قادنى إلى أبى . من يومها تهيبت الزحمة .

عندما نزح أبى من الريف ، باحثاً عن لقمة عيشه فى المدينة الكبيرة ، كنت فى سنى مراهقتى ، وقد أخذت تظهر على بدنى بوادر سمنة موروثة ، كما أخذ صوتى يخشوشن ، وأنا أذهب إلى المدرسة وأتعلم كيف أقلب صفحات الكتب التى كان يقرؤها والدى : نفح الطيب فى مدح الشفيع الحبيب .. هدية المسافر إلى النور السافر . . الأبكار الحسان فى مدح سيد الأكوان ، وشغفنى بوجه خاص ما ورد من قصص فى كتاب : روض الرياحين فى حكايات الصالحين .

بهرتنى المدينة الكبيرة باتساعها وزحامها لكأنما اجتمع فيها ألف مولد مرة واحدة . كان واضحاً أننا جئناها متأخرين فلا مكان فيها لمزيد من الناس . عندما رأيت العمارات بقاماتها المرتفعة وطوابقها المتعددة عجبت كيف تزدحم البيوت بعضها فوق بعض . كنت أخاف دائماً أن تندك فوق ساكنيها لثقل ما تحمل . رأيت لأول مرة الترامات والأوتوبيسات تزحمها الناس وهى تزحم شوارع المدينة . وبدا كأنما الجميع ، رجالا ونساء ، وشيوخاً وأطفالا وشباباً ، يهرولون نحو شىء ما ، كأنهم قطيع أغنام تتدافع فى طريق عودتها إلى قريتنا ساعة الغروب ، كل منهم مندفع يشق طريقه ... معزولا وحيداً وسط الزحمة . فاجتاحتنى نوبة كآبة عميقة ، أعمق من تلك التى اجتاحتنى يوم ضعت فى المولد . لو ضعت هنا وبكيت لن أجد من يقول لى : مالك ياولد . هنا لا تعرف أحداً ولا أحد يعرفك .

تمكن والدى — ولعلها كرامة من كراماته — أن يخلق له عملا وأن

يجد لنا سكناً . أما العمل فكان محلا صغيراً للبقالة . أما السكن فكان غرفة ، جمعتنا أنا وأبي وأمي وأختي الصغيرة سعدية وبقايا ما حملناه من كتب وأثاث . الغرفة طابق نصفه فوق الأرض ونصفه تحت الأرض، نوافذه ضيقة ذات قضبان كأنها زنزانات ، تصلها بقايا ضوء الشمس ولا تصلها الشمس ، فكأن نهارنا غروب طويل ، وما يحمل الغروب من رطوبة لا دفء فيها .

في هذا المكان تتلاصق الغرف ، في الغرف تتلاصق أجساد الرجال وأجساد النساء كلما جمعتهم عتمة الليل فيتوالدون كالأرانب. وتتصادم الأهواء فيعلو الشجار ، وتتلامس الرغبات فيشتعل الجنس ، الصياح هو اللغة الوحيدة التي يعترف بها سكان هذا الطابق ، صياح لا يهم أن يكون فيه كلمات ، كأنما هناك مسافات بعيدة بين الرجل وزوجه ، وبين الابن وأبيه ، وبين السيدة وجاراتها .

ويبدو أن صاحب البناء — توفيراً لنقوده — قد جعل سقف طابقنا منخفضاً للغاية ، بحيث لابد أن ينحني كل من يريد الدخول ، الأطفال وحدهم يستطيعون دخوله منتصبي القامة . فكنت ترى الرجال والنساء يزعقون ويضحكون ويتحركون وهم منحنون كأنهم أقواس أو أنصاف دوائر ، لهذا كانوا بمجرد دخولهم وانحنائهم يرون أول ما يرون أقدامهم والأرض التي تحت أقدامهم . النوم هو فرصتهم الوحيدة لاعتدال قاماتهم من جديد . ومع ذلك فقد كانوا يفضلون — طلباً للدفء في الشتاء — أن يحتفظوا بتقوسهم حتى في أثناء النوم، ولقد كان ذلك صعباً



علينا أول الأمر بسبب سمنتنا ، غير أننا ما لبثنا أن تعودناه . وكان فى الغرفة سرير ينام عليه والدى وأمى ، أما أنا وأختى فكنا ننام على حصير فوق الأرض .

أمى ولدت ست مرات ، مات منهم أربعة ، ثلاثة قبل أن يتموا العام وواحدة قبل أن تتم العامين ، وبقيت أنا وأختى سعدية ، فى المرة السابعة ماتت أمى . حدث لها نزيف لم تعرف الداية كيف تجابه تحديه . بدأ ذلكِ فى المساء وانتهى فى الصباح ، ليلتها لم ينم جيراننا . فى الليل قدمت الجارات كل ما يستطعن من عطف وعون ... كلمة تشجيع ، قطعة قماش، تأوهات ، طشت، ملاية سرير، صرخات . فى الصباح عندما علم الرجال أن الأمر قضى قدموا ما أمكنهم تدبيره من مال ليقرضوا أبى ما يستعين به على تكاليف الموت . الرجال الذين حملوا خشبتها تعبوا لبدانتها المفرطة ، قيل إنها كانت سبباً فى التعجيل بموتها ، بكاها أبى وبكتها أختى وبكيتها . بعدِها بشهر كانت هناك عروس فى غرفتنا تحتل فى السرير مكان أمى .

لم تكن عواطف غريبة عنا . كانت من سكان إحدى الغرف المجاورة ، ثم انتقلت مع أسرتها إلى غرفة أقل أجراً بطابق آخر بحى مجاور . كانت فى العشرين ، وكان أبى يومها قد أشرف على الخمسين وبالرغم من أنى تقبلتها أول الأمر فى شىء من التحفظ إلا أنها حاولت أن تكون لطيفة معى ومع أختى ، كما أن حلاوتها أذابت كل مقاومة من جانبى ، فما مرت بضعة أسابيع حتى أقنعتنا أنه ما كان لغرفتنا

أن تستمر الحياة فيها بدونها . كما أننا قد عانينا خلال الشهر الذى أعقب وفاة أمى من اضطراب الأمور فى غرفتنا . كانت الجارات يغسلن لنا ملابسنا ، وأبى يشترى لنا الطعام من السوق ، أما الغرفة فتراكمت فيها الأوساخ . فلما أقبلت عواطف انتظم كل شىء من جديد، بل بدت الغرفة أكثر انتظاماً مما كانت عليه أيام أمى .

فى ذلك الوقت حصلت على الشهادة الإعدادية . حاول أبى أن يلحقنى بإحدى المدارس الصناعية الثانوية . قيل لنا فى كل مكان إنه لا مكان. مجموع درجاتى أقل من أن يسمح لى بمزاحمة غيرى . كل الفصول فى كل المدارس ازدحمت بمن استطاعوا أن يحصلوا على مجموع أكبر .

سمع أبى أن معهداً رياضيًّا ما تزال فيه بعض الأماكن الخالية ، لا يشترط فيمن يقبلهم مجموع الدرجات . سكرتير المعهد ما إن رآنى — ورأى والدى أيضاً — حتى أفهمنا عبث محاولتنا .

قال لأبى وهو يتأمل سمنتى باسماً :

— ليس لدينا إلا مكان واحد ، وابنك يحتاج إلى مكانين .

— لكن تمريناتكم قد تجعله يخلى مكاناً لآخر .

— بل عليه أن يقوم أولا بتدريبات ، فالنحافة شفيع الداخلين إلى معهدنا .

عدت أجر سمنتى خجلا منها ، كأننى أزحف أو أحبو . ثدياى كثديى امرأة ، كضرعى بقرة حلوب فى كوم غراب ، لحم بطنى كله

ثنيات ، إليتاى متهدلتان ، وثمة عرق لزج هلامى ينضح متلكئاً من كل ثنية ترهل .

انضممت لفورى إلى أحد النوادى فى مقابل اشتراك متواضع ، حيث أخذت أقوم بتدريبات شاقة ، عندما نحف جسمى كان موعد القبول قد انتهى ، أدركت أن طريق المدارس أغلق أمامى ، وعلىّ أن أبحث عن عمل .

أراد والدى أن يوفر على نفسه مهمة البحث عن عمل لى ، ورأى أن يلحقنى بمحل بقالته ، طرد العامل الذى كان يستخدمه ، اتهمه بمغالطته فى حساب الزبائن ، فلا مكان لكلينا .

فى أوائل كل شهر كان الناس يتزاحمون على البقالة ، بطاقات التموين وقد لوثتها يد ، والنقود وقد لوثتها اليد الأخرى ، فإذا اختفى صنف من السوق وتسامع الناس أن بقالة عبد الرسول بها بقايا منه تضاربوا وتدافعوا فى سبيل الحصول على الكمية كلها إن أمكن ، وينفد ما لدينا والناس ما يزالون يتضاربون .

كانت مهمتى فى ذلك الوقت أن أدفعهم بعيداً عن دكاننا حتى لا تنقلب بضاعتنا فوق رؤوسهم أو تمتد إليها فى خفية يد سارق .

علاقتى بوالدى كانت علاقة إعجاب وتهيب أكثر مما هى علاقة محبة ، كنت أعجب بشجاعته وأتهيبه لقسوته . كان قد هجر زعاماته الدينية ، فبقالته تأكل وقته صباح مساء . أحياناً كان يضطبنى أقرأ أو أكتب أغنية فيسخر منى قائلا : لماذا لم تفلح فى المدارس إذن ..

لماذا لا تأكل عيشك كما يأكله أهلك ؟ .. ومع ذلك أرسلت للإذاعة أغنية بعد أخرى دون أن أتلقى جواباً . كنت أحاول أن أكتب فى خفية عنه أغانى مثل تلك التى يكتبونها عن الحب والعذاب ، لكنها كانت أيضاً تعبر عن عاطفة مشبوبة بدأت تشتعل فى دمائى .

فى الليل عندما تجمعنا غرفتنا ، بعد أن تخفت الأضواء فى الغرف المجاورة ، وتخفت معها حدة الصيحات حتى تتحول إلى ما يشبه الهمسات بدأت أتنبه إلى أمور جديدة . كنت أسمع — وأنا ما بين اليقظة النوم — حركات وأصواتاً مريبة حيث يستلقى أبى وعروسه . أخذت أتنبه شيئاً فشيئاً إلى ما يحدث فى عالمهما وأنا أستقبله بمزيج من حب الاستطلاع والاشمئزاز واللذة .

فى الصيف فضلت النوم خارج الغرفة ، فى الردهة التى تطل عليها بقية الغرف ، فى الشتاء لم أحتمل البرد . عندما اكتمل العام ولدت عواطف طفلها الأول ، ولدته فى الظهيرة .

سخونة الشمس تلسع رأسى ، رأسى دب فيه الصلع ، حرارة الجو أذابت نضارة النساء ، تبخرت عطورهن ، فاحت رائحة العرق من تحت أباطهن ، لم يقبل أوتوبيس ثالث ، أسأل واحداً بجوارى عن الساعة فيجيب وهو ينفخ : الساعة مليون . سيدة تنقل طفلها من كتفها اليمنى إلى اليسرى ، ومن اليسرى إلى اليمنى كل دقيقتين بانتظام . عجوز يرفع عينيه ويحدق فى قرص الشمس ثم يسألنى عن رقم الأوتوبيس المقبل . ومن حين لآخر يخرج شخص عن الموقف

ـ متوكلا على الله ـ يرفع يده ويزعق : تاكسى . ويفتح باب التاكسى ..

فى محل البقالة رفع أبى السكين يهم بضربى .

ـ ماذا تفعل يا ابن الكلب ، ماتزال تؤلف أغانى الغرام ، هل هذه آخر تربيتى ، أردتك أن تكون شيخ طريقة ، فلا تصبح إلا شيخ فساد .

تدخل الزبائن : اتركه يا معلم .. من أجل خاطرى .. كل الأولاد هكذا ..

ـ اتركونى أؤدبه .. المجرم .. حتى هنا لا تفلح ..

أفلت من أيدى الناس المتشابكة ، اختطفوا السكين من يده ، صفعنى على خدى أمامهم ، تهاوت بعض قطع الصابون . فكرت أن أقذف رأسه بواحدة منها . لم تكن المرة الأولى ، صممت أن تكون الأخيرة .

لم تكن الأخيرة . العثور على عمل آخر يستغرق وقتاً . أخيراً قادنى صديق إلى شركة النقل الداخلى . وقفت أمام الموظف المختص بقبول الطلبات ، تذكرت وقفتى أمام سكرتير المعهد الرياضى ، لم تعجبه هو أيضاً بدانتى ، الكثير منها ذاب الآن ، قال الرجل :

ـ سياراتنا مزدحمة ، أقصد شديدة الزحام ، لا تنقص أمثالك .. كيف تستطيع أن تنزلق بينهم . نريد محصلين مثل أعواد القصب ، وأنت .. أقرب إلى الفيل أو الدرفيل .. كه كه كه .

ضحكت مع الرجل حتى لا أبدو سميناً وسمجاً ، استأنف كلامه :

ـ شركتنا تحب الزحمة ، كلما ازدحمت أوتوبيساتنا زادت إيراداتها ، نحن نكافئ محصلينا .. ثمانية قروش جائزة إذا وصل الإيراد إلى عشرة جنيهات ، أربعة قروش عن كل جنيه بعد ذلك . جسمك سيحرمك من الجائزة والمكافأة .

استعطفته :

ـ أعدك ، سأضغط جسمي .

ـ لماذا تأكل كثيراً .. وفر يا أخي لغيرك .. كه كه كه

ـ كه كه كه .. تحسبني مليونيراً .. أعدك لن آكل بعد اليوم .

ـ سأقبل أوراقك .. المهم أن تقنع الممتحنين يوم اختبار كشف الهيئة .

عدت إلى النادي الذي يبيع النحافة ، هناك وجدت عشرات غيري كل منهم يقوم بتمرينات شاقة أملا في أن يضغط جسمه قليلا فيحصل على مكان في مدرسة أو مصلحة . التدريب كأنه تعذيب ، كان عليّ أن أنحني وأعتدل ، أجلس وأقف وأتمدد ، أرفع يداً وأخفض أخرى ، أنبعج يميناً ويساراً ، أتقوس أماماً وخلفاً ، كأنني في حلقة ذكر ، حتى ينضح عرقي غزيراً وألهث ككلب يعدو من وحش يزعجه .

أقللت من شرب الماء ، حرمت نفسي من نومة القيلولة ، اقتصرت على تناول وجبة واحدة في اليوم . جسدي كحصان عمدتنا الجامح ، أروضه بل أذله عساه أن يقودني وسط الزحمة .

ومع أنني لم أصل إلى شكل عود القصب أبداً إلا أنني أقنعت

ممتحنى يوم جلست أمامهم . غنيت لهم بعض ما ألفت بعد أن استعرت ألحان غيرى، ضحك أحدهم ، ابتسم الآخر ، هذا أول تقدير لأغانى ، وهكذا أصبحت محصلا بشركة النقل الداخلى .

فى زحام الأوتوبيس ظننت أنى فى إحدى غرف طابقنا الأرضى . السقف منخفض كسقف غرفتنا ، الناس يزدحمون على هيئة أقواس وأنصاف دوائر كما يزدحمون فى طابقنا . أجسام الرجال وأجسام النساء تنضغط فيتوهج الجنس ، الداخلون والخارجون يتصادمون ، يدوس بعضهم بعضاً فيعلو الشجار . يركز الواحد منهم كل تفكيره على مقعد قد يخلو ، هذا الاحتمال يصبح أهم ما يشغل فكره فى العالم كأنما عليه يتوقف مصيره .

— تسمحى يا هانم أفوت .

— تفضل .. من منعك .

— أنت أمامى .. كيف أتفضل ؟

— فاكر نفسك فى الهيلتون ... نحن فى أتوبيس .

— الحق على .

— فاكر نفسه فى الهيلتون ، قال تسمحى قال .

— لا يعجبها أن يتفاداها الرجل ، الحق عليه فعلا .

— ربما لها مزاج .

ها ها ها .. هو هو هو ..

ـ آه قدمى قدمى .

ـ إذا كنا نعانى من الزحمة الآن على هذا النحو ، ماذا يفعل أولادنا إذن .

ـ هذه حكمة عدم زواجى .

ـ بل حكمة الزحمة ، تعالج نفسها بنفسها ، تضايق الخلق فلا ينجبون .

ـ هذا أفضل من الأوبئة والمجاعات والحروب .

ـ الزحمة حرب ... كلما نظرت إلى أطفالى أشفقت على مستقبلهم .

ـ بعد بضع سنوات لن يجد الناس مكاناً على الأرض إلا واقفين متلاصقين .

ـ النكتة أن الزحمة نتيجة التقدم الطبى ، وتغلغل الأطباء فى الريف ، نعمة ولدت نقمة ، من يصدق ؟

ـ آه رأسى اصطدم بالسقف .

فى الدرجة الثانية صوت نسائى يقول فى غضب وحزم :

ـ تسمح تبعد .

ـ الزحمة لا تعجبك .. خذى تاكسى .

ـ أنت قليل الأدب .

ـ ما قليل الأدب غيرك .

ـ يا جماعة كلها دقيقتان .. صبركم .

ـ وحدوا الله يا جدعان .

بقيت دقيقتان على موعد نوبتى ، سينتظرنى أوتوبيسى حتى يزدحم بالراكبين فيزعقون على مفتش الحركة ، ويخصمون أجر يومى . لم أعد أحتمل الوقوف . مفاصلى تلتهب .

ذات صباح شكا أبى من مفاصله ، من ركبته اليمنى على وجه التحديد . فى المساء عاد يشكو من ركبته الأخرى ومن سخونة فى جسده . كان يتصبب عرقاً كرائحة الخل . ابتلع قرص أسبيرين ونام . فى الصباح رفض أن يستريح . قلت له : استرح يا أبى ، ستذهب عواطف إلى البقالة . برقت عيناه كالوحش وصاح : أنا أعلم ، تريد أن ترثنى وأنا حى .

ـ بل صدقنى أريدك أن تستريح .. أنا خائف عليك . خرجت فى الصباح ومفصل يؤلمك ، عدت فى المساء بمفصلين ..

قام يحاول الهجوم على وهو ثائر يصيح : تريد أن تبيع الدكان لتشترى به ورقاً وأقلاماً ، أنا أعرفك . عواطف لن تخرج من هنا .

سكان الغرف المجاورة أقبلوا ـ كعادتهم ـ حباً فى الاستطلاع ووساطة فى الخير . فضوا ما بيننا .

ذهب إلى عمله ، قوياً كالوحش ، مستعداً أن يقاوم الموت . فجأة رقد ، لا يحتمل أحداً أن يلمس جزءاً من جسده . تورمت مفاصله انتفخت بالماء ، قال الطبيب إن المرض وصل القلب . هزه السعال والتقيؤ . كلما سعل أحس أحشاءه تتمزق فتتمزق معه روحى . ونظرات

الرعب فى عينيه لا تمحى من عينى .

فى الليل بعد أن دفناه ، بعد أن انفض مجلس المعزين والمعزيات ، بعد أن بكت أختى سعدية وعادت إلى بيت زوجها ، بعد أن بكى إخوتى من عواطف وناموا ، كانت عواطف ماتزال تبكى . لم أستطع أن أذرف دمعة واحدة ، على حين ارتفع فى داخلى نشيج صامت يقطر مرارة .

أدركت أننى ورثت أبى حقاً ، الأفواه الصغيرة التى تركها لى ، بقايا كتبه وبضاعته ، دكانه وعواطف أيضاً . حاولت أن أسكنها ، أن أعزيها وأنا فى حاجة إلى من يعزينى . ثياب الحداد السوداء كشفت عن بياض بشرتها ، لم أتنبه من قبل إلى بياض بشرتها على هذا النحو الناصع ولا إلى نعومته الحريرية .

فى الليل التالية لموت أبى اكتشفت أن أنفها جميل ، أدركت أن الأنف مسئول عن جمال الوجه أو قبحه ، الأنف مركز الوجه ، إذا كان ضخماً أو طويلا أو أفطس ألقى بظلال قبحه على ما يحيط به . أنفها دقيق أشاع الحلاوة فيما حوله .. فى شفتيها ، فى ذقنها ، فى عينيها حتى تمنيت أن أقبله ، أن أقبل فقط طرف أنفها ، كتبت هذا فى الأغنية.

فى الليل حلمت أنى أحمل أبى وهو يئن من آلامه ، كان ثقيلا لبدانته ، وكنت أنا قد أصبحت نحيفاً . وقعت وأوقعته معى على الأرض . سمعت أنينه وهو يصيح فى حزن : لماذا توقعنى .. يا جبار يا قاسى . فى تلك اللحظة كنت أذوب حناناً وعطفاً عليه ، وأنا أرى آلامه

تتضاعف بسببي . صحوت مترعجاً لأرى عواطف راقدة فى سرير أبى تتنفس فى هدوء وقد تعرى جزء منها أكثر بياضاً ونعومة مما اكتشفته أمس ، فاقتربت أغطيه فى حنان وأنا أحس الدفء يشع منها .

فى الليالى التالية تعمدت ألا أعود مبكراً ، لا أعود إلا بعد أن تكون عواطف قد نامت . طلبت أن تكون نوبتى ليلية ، كنت أفضل هذه النوبات حيث يخف الزحام قليلا .

فى ليلة الأربعين كان علىّ أن أكون بجانب عواطف أستقبل المعزين ، فى تلك الليلة اكتشفت صوتها ، كيف لم أكتشفه إلا الليلة ، نطقها المتكسر كأنه نداء ، فيه بحة كأنه رغبة ، ليلتها لم أنم بعيداً عنها ، لم يفصل بينى وبينها إخوتى ، بل نمت تحت سريرها مباشرة . كان هذا فى أول الليل . غير أنه حدث فى منتصفه أن وجدت نفسى أرقد حيث أبى كان يرقد . فى تلك اللحظة اكتشفت قدميها . اكتشفت أصابع قدميها ، اكتشفت أظافر أصابع قدميها . كنا مجنونين رغبة . ثم غفت فغفوت .

وجدت نفسى فى المولد ، المولد فى أوتوبيس ، ثمة موكب يتجه نحوى ، يقترب منى ، احتشد فيه الناس وهم يذكرون ويكبرون حاملين أعلامهم ومشاعلهم وطبولهم يتقدمهم أبى على حصان كبير من الحلوى لابساً طرطوراً شاهراً سيفه ، حوافر حصانه تطرؤنى وسيفه يضربنى ، من خلفه يتدافع الناس كما يتدافعون لأخذ تموينهم من البقالة ، كما يتدافعون لركوب الأوتوبيس قبل أن ينزل ركابه .. يتدافعون

ويدوسوننى وأنا أصرخ ولا صوت يخرج، فقد امتلأ فى بالتراب . كنت أنضغط تحت حوافرهم وهم يدوسون مفاصل جسدى مفصلا مفصلا ، حتى ضاع دفتر التذاكر وتبعثرت نقود محفظتى ، وأنا أتشبث عبثاً ببقاياها .. آه سيطردوننى من عملى . لم يبق بينى وبين موعد نوبتى غير ثلث دقيقة . أحذيتهم وأقدامهم ماتزال آثارها داخل مفاصلى، داخل ركبتى اليمنى على وجه التحديد ماتزال آثار ضربة من سيف أبى ... جسمى يغمره عرق رائحته كرائحة الخل . سيزحف المرض على قلبى .

أنا فتحى عبد الرسول ، محصل وشاعر وعاشق ، نحن فى الغرفة جميعاً ، ابنها الأكبر بدأ يتنبه . يصحو فى الليل كأنما يريد أن يشرب من القلة، ينظر نحونا، أنا قد ابتعدت ، لعله يريدها له، أشك فى نواياه.

ــ ماذا تفعل يا سعيد .

ــ إيه .. أشرب .

ــ تشرب .

وتصحو عواطف وهى تقول :

ــ الدنيا ليل .. الحيطان لها آذان ... أخزوا الشيطان .

ــ لكن ما علاقة هذا الولد بك .

ــ تقصد ابنى سعيد .. هل أنت مجنون .

ــ لست مجنوناً .. لماذا يقوم كل ليلة .

ــ يريد أن يشرب أو يتبول .

ــ بل أعرف ماذا يريد .

صفعت سعيد على وجهه ، صرخت أمه ، استيقظ الجيران ، عواطف تصرخ :

— ابعدوا عنى المجنون ، ابعدوا عنى المجنون .

فى الفجر لمحت والدى فى ركن الغرفة يرتدى بذلة مفتش فى شركتنا وقد جلس متربعاً وهو يتمايل يميناً ويساراً ، المانوفستو بيده ينشد منه :

آه يا جبار يا قاسى .. أنا أبوك يا ناسى .

ظل يردد نشيده كأنه فى حلقة ذكر حتى تذكرت الفاتحة ، رددتها اختفى . غير أنه عاد فيما بعد . كان لا يعود إلا فى الفجر أولا ، ثم تعددت زياراته فى كل وقت .

فى زحام الأوتوبيس عادونى نوبات الكآبة والتهيب وأنا منحن أقطع التذاكر حتى لأفقد كل رغبة فى الحياة ، لا أحتفظ إلا بالقليل الضرورى لاستمرارها . أفقد شهيتى للطعام والنوم كما أفقد عواطفى نحو عواطف بل قدرتى على تأليف الأغانى .

— تذكرتك يا هانم .

— دقيقة .. آه كيس نقودى ، كيسي ، أين كيسى .

— نشله النشالون ... نشالون .. لون .

— أوقف الأوتوبيس .

— عندنا مواعيد .

— فتش الركاب .

— ولد صغير كان يقف بجوارها ، قفز من محطتين سابقتين .

ــ كان فيه كثير ؟

ــ عوضك على الله يا هانم .

السيدة تلعن الزحمة على حين يتحسس كل راكب جيبه .

ــ أنت دفعت كم ؟

ــ خمسة قروش .

ــ وأخذت الباقى كم .

ــ تسعة قروش .

ــ هل هذا باقى مبلغك .

ــ هل أعرف ثمن التذكرة فى أوتوبيسكم .

ها ها ها ... هى هى هى ... هو هو هو ...

أريد أن أشم رائحة الخضرة، أن أتنفس ضوء القمر وهو ينتشر على حقول غطتها عيدان الذرة . لم أعد أشم إلا رائحة العرق والأنفاس . فى الليل يختنق ضوء القمر تحت زحمة البيوت ، طردوا القمر من المدينة . هذا كان فى الأغنية .

أشرفت عواطف على محل البقالة . كانت تخرج فى الصباح ولا تعود إلا فى الليل . فاجأتها أكثر من مرة لعل زبوناً يغازلها . الزحام اشتد على البقالة عن ذى قبل . وجدت سعيداً يساعدها بعد عودته من المدرسة . لم تعطنى نصيبى مما تربحه ، أريد أن أقضم أنفها . وجه أبى يقف بينى وبينه .

ماذا يفعل هذا الولد عندك ؟

— يساعدنى كما كنت تساعد أباك .

— بل يأكل نصيبى .

— نصيبك يأكله إخوتك .

— إذن آكل أنفك .

— يكفيك أجرك .

— يكفينى طرف أنفك .

— ليس لك نصيب .

— أنفك نصيبى .

— آه ... ماذا تفعل .

هجمت عليها ، التفت أصابعى بشعرها ، التصقت به ، تشبثت به ، حاولت أن أرفع وجهها لأقضم أنفها ، فوجئت بطعم الدم . لسانى يلعقه . لمحت — من خلال المعركة — أنفها الجريح ، غير أنى لم أفلح فى انتزاع قطعة منه ، ولا حتى مجرد قطعة صغيرة صغيرة . خمشت وجهى بأظافرها وهى تولول . ضربت رأسها فى حائط الدكان . تجمع الناس ثم تزاحموا كما يتزاحمون فى الأتوبيس ، ضغطونى بينهم . قلت لهم إنها لا تريد أن تدفع ثمن تذكرتها ، يجب أن تنزل فى المحطة التالية .. أين تذاكركم ، أنا أعرفكم ، كلكم تحتمون فى الزحمة حتى لا تدفعوا .. لكنى أميز جيداً بين الوجه الذى دفع والقفا الذى لم يدفع .

دفعتنا الزحمة إلى مركز الشرطة ، قالت لهم إنى مجنون واستشهدت بأنفها المقضوم . طلبت حمايتها منى والكشف على عقلى . كتب الشاويش

المحضر ، فى المحضر كتب اسمى وعنوانى وعمرى وعملى .

من يومها أدركت أنهم قد يقبلون فى أية لحظة ، ليلبسونى قميص الكتاف ثم يأخذونى .

منذ زمن بعيد كنت أسير متكوراً مادام على أن أنحنى كالقوس داخل غرفتى ، وكالقوس داخل أتوبيسات شركتنا ، فقد وفرت على نفسى جهد الاعتدال ما بين المكانين ، ووجدت فى هذا التكور ما قد يخفينى عن أعينهم .

كنت أحاول الاختفاء عنهم وأستعد فى الوقت نفسه لاستقبالهم . فى كل مرة أتسلم أجرى أقول : هذا آخر أجر لك قبل أن ينقلوك ، فى كل مرة أحلق شعر رأسى أو ذقنى أقول : هذه آخر مرة تحلق فيها قبل أن يأخذوك ، فى كل مرة أستحم فيها أقول : هذه آخر مرة تستحم فيها قبل أن يلبسوك قميص المجانين .

— تذاكر .

- مصلحة .

— تسمح .

ويخرج الرجل بطاقة تثبت أنه خارج من مستشفى الأمراض العقلية ، أسأله لماذا لا يريد أن يدفع ، يضحك قائلا :

— يا سلام ... نحن واحد .

هى هى هى ... هو هو هو .. أنا فتحى عبد الرسول ، محصل وشاعر وعاشق ومجنون، ألفت أغنية عن الزحمة، طبيبى لا يصدق أنى مؤلفها .

فى الزحمة تتلاصق الأجساد ، تتلاصق الكلمات ،
يختفى العطف ، تختفى حروف العطف ،
يتلاشى الوصل ، تتلاشى أسماء الوصل ،
الزحمة هم ثقيل ، أحمله فوق قلبى ، فوق ظهرى ،
يضغط على لحمى ، يتسلل إلى نخاع عظامى داخل لحمى .

رأيت الناس فى الزحمة ، رأيتهم عندما يخلو مكان فيتدافع نحوه العشرات مذعورين متحفزين ، غير أن أشخاصاً أقدر من غيرهم على الانسياب وسط كتل اللحم ، هم وحدهم يفوزون بالمقعد ونصف المقعد ، ويجلس الواحد منهم وعلى شفتيه شبه ابتسامة ، كأنما هو بطل صغير محلى يحتذى ويحسد . أما الرضع والحوامل ، أما الذين يتأدبون والذين يترددون ويبطئون فيظلون واقفين ، تتشبث قبضاتهم بقضيب فى أعلى السيارة ، كأنهم ذبائح بشرية معلقة مكدسة ، تقطر مرارة آه .. مفاصلى تؤلمنى . هذا ليس فى الأغنية .

معى فى هذا المكان الذين يبكون والذين يضحكون . الذين صمموا على أن يقفوا بقية حياتهم على ساق واحدة ، والذين صمموا على أن يرفعوا يداً لا تنخفض ،معى عظماء العالم : نابليون والسيد البدوى وصاحب « شركات النقل الصاروخى قبل أن تخترع الصواريخ » هكذا الاسم الكامل لشركاته . ومعنا أيضاً من أطلق على نفسه لقب صاحب القدرة على كل شىء ، جميعهم طيبون ماعدا نابليون ، هو وحده الذى يخيفنى ، متى وجد عصاً فى متناول يده ركض خلفى يحاول أن يضربنى مدعياً

أنى أحد جنوده العصاة وأنه يؤدبنى بعصا الماريشالية،وأنا أعدو متكوراً أمامه حتى يختطفها المرضون منه .

أما الباقون فيأتون من حين لآخر ليقفوا إلى جانبي فى انتظار الأوتوبيس ، غير أن صبرهم سرعان ما ينفد ، فيتسللون واحداً إثر واحد ، حتى صاحب شركات النقل الصاروخى ما يلبث أن ينفخ ثم ينسحب، وأظل وحدى واقفاً تحت وهج الشمس أنتظر .. أنتظر .. أنتظر...

منذ دخلت هذا المكان وأنا أقول : غداً أخرج ، غداً وبعد غد وبعد بعد غد . فى كل عام أقول: هذا آخر مولد لسيدى أحمد النوتى أقضيه هنا ، هذا آخر مولد نبوى . آخر عيد كبير ... عيد صغير.

عندما أسأل الطبيب : متى تقرر خروجى . يجيب : بل أنت الذى تقرره ، عندما لا تعود ترى وجه أبيك ، عندما لا تعود تقضم أنوف النساء ، عندما ترفع قامتك من جديد . فأسأله : هل الزحمة ماتزال تزحم المدينة . فيضحك قائلا : ها أنت ذا ماتزال مريضاً .

إنى ألمح طبيبى مقبلا ومعه زائر جديد ، هكذا كل يوم . أعرفه بمعطفه الأبيض ونظارته الفضية . أعرف بماذا يهمس له ، كما همس لزائر الأمس ، وأول أمس ، وأول أول أمس . إنه يؤكد له أن مفاصلى سليمة ، المرض فى مفاصل عقلى .. ها ها ها .. إنه يشير نحوى قائلا: هذا الرجل القوس لا يزال ينتظر الأوتوبيس ، منذ ثلث قرن ما يزال واقفاً ينتظر ، ينتظر مكاناً له فى الزحمة .

مدد يا قطب يا مغيث ، مدد يا حى يا قيوم .

فبراير ١٩٦٣

نشرة الأخبار



كانت حارتنا الصغيرة تضج بخليط الأصوات المتنافسة، فقد كان فيها — حتى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين من مساء ذلك اليوم— منزل من طبقتين ، بكل طبقة شقتان . وكان فتحى عبد الحميد طلاء الأثاث بالمغربلين قد أقام حفلة عرسه على سطح ذلك المنزل ووضع مكبراً للصوت تلعلع منه الأغانى والمونولوجات ، وقد استحال سطح المنزل إلى شعلة مزينة بالأنوار الملونة مما أضاء حارتنا على غير عادتها ، وأضفى عليها بهجة وأنساً لم تعرفها منذ زمن بعيد ، فانتشرت الأضواء والظلال بنسب متفاوتة فى زوايا حارتنا وفى مرتفعاتها ومنخفضاتها كما تسلق الضوء والظل جدران منازلنا .

وفى الطبقة السفلى أقامت جمعية الأسرار الكونية حفل تأبين لرئيسها السابق المرحوم محمد مفتاح محمد طبلية ، وقد جلس المقرئ أمام مكبر آخر يقرأ ما تيسر من آى الذكر الحكيم . أما فى المقلى التى يقصدها أطفال حارتنا لشراء اللب والحمص فكانت أم سيد قد فتحت مذياعها ليذيع نشرة الأخبار بأعلى صوت كأنما هى وجميع سكان الحارة قد أوشكوا أن يصابوا بالصمم..

وكانت العروس ابنة عم العريس ، لهذا فمنذ الصباح الباكر بدأ الأقارب يفدون إلى المنزل . وما إن بلغت الساعة الثامنة والنصف مساء حتى كان سطح « العمارة » وإحدى شقتى الطبقة الثانية بها يموجان بالخلق

الكثير . وكان الرجال يدخلون الشقة حيث كان الشيخ حسانين مبروك مأذون الحى يكتب عقد القران . فتلا الأحاديث النبوية عن الزواج ، وذكر الحديث الشريف : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » ثم طلب منديلا من العريس وضعه على يده ويد صهره والد العروس ، وتلا عليهما الصيغة الشرعية لعقد الزواج ، ثم بدأ يحرر قسائم الزواج فأعطى العريس القلم حيث وقع عليها ثم أخذه منه وقدمه لوالد العروس ليوقع هو الآخر .

وكان كل ما يرتديه العريس فى هذه الليلة جديداً ، ملابسه الداخلية والخارجية على السواء ، وكان يضع قدميه فى جورب وحذاء جديدين ، غير أن الحذاء — لسوء الحظ — كان حذاء ضيقاً ، وكان يضع قدميه فيه منذ ساعات ، بيد أنه كلما مر الوقت ازداد إحساسه بالألم ولاسيما أصابع قدمه اليمنى ، وعندما كان يوقع قسائم العقد الثلاث كان الألم قد بدأ ينتقل من أطراف هذه القدم إلى بقية جسمه وروحه وهو يفكر فى طريقة يتخلص بها من هذا الألم الفظيع الذى يفسد عليه البهجة فى ليلة العمر .

أما النسوة فكن يصعدن إلى السطح حيث تستقبلهن فرقة العوالم ، والعروس فى الكوشة وحولها صديقاتها العذارى . وقد جذب نظرها — فجأة وعلى الرغم منها — شهاب مندفع يسقط مشتعلا بين السماء والأرض فابتعدت لحظة — بل هنيهة من اللحظة — عن ضجة العرس الخارجية وعن هواجس نفسها الداخلية مما هى مقبلة عليه فى ليلتها تلك ، وعبرت

ببصرها سريعاً صفحة السماء الصافية ونجومها المتناثرة لترتد من جديد إلى ما كانت فيه .

وفى اللحظة نفسها – وأمامها على السطح – كانت الراقصة زوايد ترقص أمام مائتى سيدة ورجل وطفل ، وبدلة الرقص تغطى نصف جسدها لتكشف عن النصف الآخر . وكل جزء من لحمها – ومن بدلة الرقص – يهتز كأنه قطعة منفصلة .. والمتفرجون يهتزون .. والسطح يهتز .. تحت وطأة جسدها .. ووطأة قدميها .. ووطأة التصفيق المنتظم .. يذيعه مكبر الصوت ليعلن إعجاب الجمهور ومشاركته ، على حين كان مقرئ جمعية الأسرار الإلهية يتلو الآية الكريمة .. « وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » . أما راديو أم سيد فكان يذيع ملخصاً لأنباء النشرة وفى أوله ، إنه تم بنجاح إطلاق أول قمر صناعى يدور حول الأرض فى ساعة وخمس وثلاثين دقيقة ، ويقطع المسافة من موسكو إلى نيويورك فى ست عشرة دقيقة ..

وصعدت الست أم خليل الساكنة بالشقة الأخرى بالطبقة الثانية لتعلن أمراً خطيراً لم يأبه له أحد ، فقد أبلغت أم العريس أن الأتربة تنهال عليها من سقف غرفتها وتخشى أن يحدث مكروه للمنزل وساكنيه ومدعويه . لكن الحاجة فاطمة والدة العريس استنكرت هذا التحذير . فالست أم خليل كثيرة الكلام طويلة اللسان ، لم يدعها أحد لحضور العرس لسلاطة لسانها الذى أطلقته فى العريس والعروس معاً ، وهى حاقدة تريد أن تخيف المدعوين وتفسد الليلة بهذا الكلام الفارغ ، فتركتها

تصرخ حتى غادرت المكان .

وكان أهل حارتنا يعرفون أن صاحب المنزل قد سبق أن نبه إلى ما نبهت إليه أم خليل ، وكان ذلك منذ شهور . ولكنهم ظنوها حيلة يريد بها أن يخرج سكانه ليؤجره لآخرين بإيجار أفضل ، ويومها انبرت له أم خليل ثائرة لهذا الطلب ، وأصرت ألا تترك شقتها حتى لو ترك الآخرون المنزل ، وأقسمت بالله ثلاثاً أنها لن تغادره إلا إذا تهدم فوق رأسها لتشيع منه إلى المقبرة .

وهبطت أم خليل إلى شقتها الصغيرة لتوقظ زوجها وابنها ، لكن زوجها لم يأبه هو الآخر بتحذيرها ، وتمتم وهو بين النوم واليقظة : بلا كلام فارغ يا وليه ، يقع إيه ! ويتهد إيه ! أنت نسيتى حلفانك ، سيبينى أنام وأرتاح » . وكان ابنه خليل — وهو فى الثالثة من عمره — ينام بجواره ، فاقترب منه واحتضنه .

والواقع أن أم خليل كانت سيدة شجاعة ، فلاشك أن تحذيرها لأصحاب العرس بالرغم مما بينها وبينهم من جفاء ، وبالرغم من قسمها الذى ارتبطت به أمامهم كان يحتاج إلى شجاعة . لكن عدم اكتراثهم لتحذيرها جعلها تشك فيما ساورها من قلق ، وتغلبت عليها من جديد حجج تدعوها إلى البقاء ، فإلى أين تذهب إن خرجت هى وزجها وابنها فى هذا الوقت من الليل ، وأين يجدون شقة من غرفتين كاملتين غير دورة المياه — بثمانين قرشاً فى الشهر ، إيجار قديم قبل الحرب ؟ وعندما ذهبت إلى المكان الذى كانت الأتربة تتساقط منه لتحسم

ترددها وجدت أنها الآن أقل تساقطاً . لهذا قررت أن تذهب إلى أم سيد صاحبة المقلى تستشيرها فيما تفعل ، فهى صديقتها الوحيدة فى حارتنا .

وعندما اقتربت من المقلى كان الراديو يذيع أن شاباً أمريكياً احتج على الحكومة السوفييتية لاعتدائها على حقوقه المشروعة فى الفضاء الجوى الذى يملكه ، وكان هذا الشاب قد احتفل بتسجيل دولته « سلستيا » فى مكتب شيكاغو . ثم أعلن المذيع فى خبر آخر أن موسم انهيار المنازل فى مصر يبدأ عادة بعد موسم الفيضان ، لأن مياهه تتسرب تحت الأرض تأكل من جدران المنازل عاماً بعد عام حتى تستسلم وتنهار ، وفى تقدير المسئولين أن المنازل المهددة بالسقوط فى القاهرة وحدها تبلغ حوالى اثنين وأربعين ألف منزل .

أما مقرئ جمعية الأسرار الكونية فكان يستريح قليلا ليستأنف تلاوته من جديد . .

وفى الشقة المواجهة ، كان شلبى شلباية — العامل بمصلحة التنظيم والذى بلغ الثانية والعشرين أمس وتزوج منذ أربعة أشهر — فقد قرر ألا يبيت فى منزله الليلة ، فقد كانت زوجه الحامل فى ثلاثة أشهر ، غاضبة منه لأنه لا يعطيها ما يكفيها لمصروف المنزل . فتركته وقصدت منزل والدها . وكان ينوى الذهاب إليها الليلة ليصالحها ويقضى الليل معها — فقد تركته منذ يومين — ثم يعودان إلى منزلهما غداً فهو يوم عطلة رسمية . غير أنه أجل الموعد إلى اليوم التالى رغبة منه فى الاشتراك فى العرس . ولكنه — وقبل أن يوغل الليل — وجد نفسه مرهقاً بسبب عمله

بالمصلحة ، ففكر أن ينام ولو ساعة واحدة تعيد إليه نشاطه ، فإذا به يستغرق فى سبات عميق .

وفى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين شوهدت أفاريز النوافذ فى المنزل الممتلئ بالضوء والضجيج وهى تتحرك وتتزحزح ، والجدران وهى تتمايل وتتشقق ، على حين تحطم زجاج إحدى نوافذه الغربية ، وانطلقت فجأة صرخات علت وطغت على جميع إذاعات حارتنا وترنحت الأنوار الملونة ثم ما لبثت أن تلاشت ، وهرب الأطفال الذين كانوا قد تجمعوا أمام باب المنزل يشاركون فى العرس من الشارع بعيونهم وآذانهم ، وأطلت النسوة من نوافذهن ، وخرج المأذون وخرج العريس وهو يعرج ، وخرج والد العروس من غرفتهم يستطلعون الأمر . وإذا بالمدعوين يتدافعون على درجات السلم وهم يتصايحون ، « ياساتر يارب ، البيت وقع ، يا ساتر » وأطل العريس نحو كوشة العروس فإذا بها قد اختفت مع المدعوات ومع الرقصة والفرقة الموسيقية وأصبح المنزل مشطوراً قسمين ، قسم انهار وهو الذى به دورات المياه وقسم ظل سليماً وهو الذى يجاور السلم .

وتلاشت إذاعة العرس وإذاعة التأبين ، أما صاحبة المقلى فهرولت مع أم خليل تستطلع جلية الأمر وسط الغبار الذى زاد عتمة الليل كثافة ، فنسيت — فيما نسيت — مذياعها مفتوحاً مايزال يذيع بصوته المرتفع نشرة الأخبار ويقول إن رئيس وزراء الهند أعلن أننا انتقلنا من العصر الحجرى إلى عصر الكواكب والفضاء ، على حين أعلن أحد

أندية الإعلانات فى دويتريت أنه بدأ فى دراسة وسائل الإعلان فى الفضاء .

وأصبح لحارتنا فى دقائق – وفى الساعة الثامنة والدقيقة السادسة والثلاثين على وجه التحديد – أهمية كبيرة . فقد انقلب مائتا مهنىٌ – على الأقل – على خمسين مؤبناً ، وربما تجاورت جثتا الراقصة والشيخ المقرئ . وهذا – فى حد ذاته – خبر عظيم لصحف الصباح ، من شأنه أن يجعل لحارتنا شهرة ما كانت تحلم بها ، كما أنه فرصة لا تعوض لأقسام الإعلان بشركات التأمين وهو إلى جانب ذلك حدث يجذب إليه رجال البوليس والإسعاف والمطافئ والتنظيم وأقارب الذين إختفوا تحت الأنقاض ما بين قتيل ومصاب وفزع ينتظر النجدة .. والندابات اللاتى يتشممن رائحة الموت وينجذبن إليها ، عدا المتطفلين ومحبى الاستطلاع .

وارتفع صوت أم خليل مولولا وهى تقص قصة التراب الذى رأته يتساقط ، وقصة إنذارها لزوجها ولأهل العريس ، وتشبه نفسها بسيدنا نوح عليه السلام ، ثم تعود تعزى نفسها بأن زوجها إن كان قد مات تحت الأنقاض فقد لقى ربه شهيداً ونظيفاً « ساعة العشا شايفاه عال وآخر صحة ، دخل دورة الميه وصلى العشا ، ودخل نام ، وهيه النومة » .

وفى لحظات أذابت مأساة أم خليل ما قام بينها وبين أهل حارتنا منذ سنين ، فأقبلوا عليها يعللونها بالصبر عسى أن يكون زوجها وابنها من الناجين ، لكنها واصلت صرخاتها وهى تؤكد لهم أنها رأت بالأمس

حلماً ينبئها بكل ما وقع ، ولم تكن تعتقد أنه سيتحقق على هذا النحو السريع . لقد رأت فيما يرى النائم رجلا غريباً طويلا يرتدى ما يشبه العباءة البيضاء يدخل شقتها دون استئذان ثم يصطحب معه زوجها وابنها وهى تسأله وتسألهما إلى أين هم ذاهبون فلا تسمع رداً وإن كانت تعتقد أنهم سيتحدثون فى أمر ما ولسبب ما على عتبة الباب ، ولكن الدقائق مرت دون أن يعودوا فأطلت من باب شقتها فلم تجد شيئاً حتى درج السلم فانتابتها نوبة بكاء إلى أن استيقظت مذعورة لتجد ابنها وزوجها بجوارها ، وانحنت نحوهما لتتيقن أنها كانت تحلم حقاً ، وعندما تحققت تنفسهما المنتظم ارتاح قلبها وإن كان مايزال به آثار غم . ولكى يتم المقدور لم تربط بين تساقط الأتربة وما رأته فى حلمها أمس وإلا كانت أصرت على خروجهما ولو بالشتيمة والضرب .

وحاولت أم سيد عبثاً أن تبعد أم خليل عن البناء المنهار وأن تصطحبها معها إلى المقلى حتى تجلس على المقعد الوحيد به لتستريح . وكانت أم سيد تبيع إلى جانب اللب والحمص والفول السودانى زجاجات الكازوزة وعلب السجائر كلما أقبل ضيوف محترمون فى حارتنا . وفى الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين شوهدت وهى تهرول راجعة إلى مقلاها . ولعلها خشيت أن يستغل أحدهم فرصة الزحام وتمتد يده إلى شىء ، لكنها وجدت هناك رجال البوليس الذين انتشروا فى حارتنا ينتظرونها ليشتروا منها كازوزتها وسجائرها . ويبدو أنها لاحظت ارتفاع صوت مذياعها فخفضته على حين كان المذيع يقول : إن بوليس النجدة فى الهند تلقى رسالة من القمر الصناعى

ثم فيما يشبه الهمس أن البوليس عثر فى الإسكندرية على ثلاثة وأربعين لفافة من الحشيش ماركة « القمر الروسى » ، وفى أمريكا نجح خبراء الألعاب فى اختراع قمر صناعى للأطفال .

وفى الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين كانت الولولات قد زادت فى حارتنا ، كان هناك من يبكى لأن له عشرين قريباً تحت الأنقاض ، على حين جثم مجهول فوق الأرض ينبش بأظافره ، وكانت جارتنا بخاطرهم تبكى لأنها اقترضت عقداً ذهبياً تتحلى به أمام المدعوات ، وبالرغم من أنها نجت إلا أن العقد ضاع منها وسط الضجة والزحمة ، وكانت هناك من جاءت بقميص نومها تبكى وتتوسل بإلحاح لأحد رجال المطافئ أن يبحث عن قريب لها قبل أن يلفظ أنفاسه . وكان والد العروس يبكى ابنته ووالديه وزوجه وأولاد أخيه وعمه وهو يقول : « أنا رجل فقير ، مهر ابنتى ثلاثون جنيهاً ، وكان معى خمسة جنيهات وأعطيت الحاجة فاطمة المبلغ كله ولا أعلم : هل عاشت أو ماتت ؟ وهل المهر الذى معها ضاع أو ما يزال موجوداً ؟ وكان العريس يبكى ، وهو يقول كالمجنون : « حطوا إيدى فى إيد عروستى وزفونى معها ، هى لم تمت ، كانت لسه قاعدة جنبي فى الكوشة ياناس » ، ثم يقول : « إن كل معدات الفرح التى أحضرها هذا الصباح قد دفنت تحت الأنقاض ، خمس عشرة زجاجة شربات وخمسين علبة ملبس ومائة جنيه نقوط ، غير الأثاث الذى تفنن فى طلائه لتعجب به عروسه ، وكانت هناك حسناء — من غير حارتنا — تبكى لأنها أتت مع أخيها الصغير بغير استئذان والدها ، وقد فقدت أخاها الآن

ولا تعرف كيف تعود ؟ .

أما أم سيد فكانت مبيعاتها من السجائر والكازوزة قد زادت زيادة كبيرة هذه الليلة ، على حين كان مذياعها ما يزال يهمس أن المنجم شيلو أنطونيو طمأن الناس أنه لن يكون للقمر الصناعى أى تأثير سماوى على مقاديرهم . كما زعمت السيدة سبسليا كيون أنها استطاعت فى أثناء نومها سماع الإشارات التى يرسلها القمر الصناعى بدبابيس الشعر الخاصة بها ، على حين صرح أحد شيوخ الأزهر أن إطلاق القمر الصناعى لا يعد تحدياً لقدرة الخالق .

وكنا نتساءل : ماذا عسى أن يكون قد حدث لشلبى شلباية العامل بمصلحة التنظيم ولأعضاء جمعية الأسرار الكونية ومقرئهم ، فلم يظهر منهم أحد ليخبر أهل حارتنا بما حل بهم ؟ ولكننا كنا أكثر تلهفاً لأن نشاهد جثة العروس أو جثة الراقصة كأنما هى رغبة دفينة فى أن نعذب أنفسنا ونحن نواجهها بهذا التناقض البشع الموجود بين لحظة وأخرى . وكان رجال المطافئ قد بدءوا يخرجون أشلاء ملتصقة بقطع من زجاج المرايا وزجاجات الشربات ويكشفون عن مزيج اللحم والعظام مختلطاً بحطام الصناديق والأطباق والدم والتراب .

ولكن كان أول ما أخرجه رجال المطافئ فى حالة سليمة ، هو جثتا أبو خليل وابنه ، وعلى ضوء كشافاتهم رأينا المنظر المؤلم ، الأب يحتضن ابنه كأنما ليحميه ويفديه ، فحاط جسده بإحدى ذراعيه وحاط رأسه بيده الأخرى فى حنان ، فى حين ارتفعت ولولة أم خليل على جميع الولولات

الأخرى ، وكان مما يزيد فى مصيبتها أنها ضربت بالأمس ابنها « خليل » لأنه رفض أن يتعشى زيتوناً ، ولما تدخل أبو خليل – رحمة الله عليهما – ليمنعها من ضرب ابنها شتمته بأقذر الشتائم ، ولم يسلم من لسانها أبوه ولا جده ولا أجداد أجداده ، ووجد ضميرها الآن فرصة لا تعوض لتعذيبها ، فراح ينتقم منها مضخماً تصرفاتها مضروبة فيما لا نهاية له من المرات ، وهى لا تجد طريقة تتخلص بها من هذا العذاب الفظيع سوى أن تهيل فوق رأسها من تراب المنزل الذى تهدم ، وهى تعترف بأعلى صوتها أمام جارتنا بما فعلت ، على حين كان أحد الخبثاء يقول : لعلها بادرت بمعاقبة نفسها بنفسها قبل أن يعاقبها أهل الحارة قائلين : « انظروا لقد قتلتهم ونجت هى » .

فى هذه اللحظة كانت أم سيد قد قررت أن تسكت الإذاعة ، فاقتربت من مذياعها لتطفئه فى حين كان المذيع يعلن أن أسقف كنتربرى صرح الليلة أنه لم يعد هناك مستحيل فى عالم صنع قمراً صناعياً . ثم جاء فى ختام النشرة أن عشرين شخصاً من سكان غينيا الجديدة توفوا اليوم بسبب إصابتهم بمرض الضحك . وقد بلغ عدد المصابين فى المستشفى هناك سبعين مريضاً ، حتى الآن ، وهم يضحكون ليلا ونهاراً ، حتى يلاقوا مصيرهم !

١٩٦٠

العشاق الخمسة



فى إحدى الأماسى جلس يتلو عليهم من شعره الغنائى الحلو ، فلما انتهى منه قال :

ــ إنه لا يمكنك أن تعرف قلب المرأة ، فواحدة قد تكون ملحة بحبك ثم تنصرف إلى صديقك تحدثه كلما رأتك مقبلا ، وأخرى لا تبادلك عاطفة ولا عطفاً ، ثم تظهر اهتمامها بك كلما هممت منصرفاً ، وثالثة قد تكون ذهبية الشعر ناعسة الطرف هشة الأعضاء ولها قلب ظامئ إلى الحب والتحطيم والندم . . .

ثم سعل سعالا يوشك أن يكون مرضاً ، واستأذن فى الانصراف وابتلعه الصمت والظلام . . . ولم يعد إليهم من يومها ، منذ عشرة شهور ، منذ أخبروهم أن العلة اشتدت عليه . . .

ولقد أبلغوهم منذ أسبوع واحد أن حامداً قد مات . . .

ذلك أنه فى منتصف القرن العشرين بعد الميلاد ، كان يعيش فى مصر جيل من الشباب ، شاهدوا الماضى ينطفئ وراءهم ، وشاهدوا المستقبل لغيرهم ، ولم تستطع أقدامهم أن تثبت فى الحاضر . . . وكان هذا الجيل يقرأ الأدب على ضوء مصابيح بترولية ، ويتابع دراساته وهو يستمع إلى ضجيج المذياع فى أقرب مقهى . . . وكانوا يبحثون عبثاً عن الفرح ، فمن حولهم تنتشر الأوبئة والأوجاع ، كما كان يشقيهم قلق وحرمان ، وهم يكافحون فى بطولة حتى تتحطم أعصابهم وتمزق الوحدة أحشاءهم ، فيفقدوا الثقة فى

أنفسهم وفى العالم . . . ومن هذا الجيل كانت مصر تتطلع إلى القادة الذين سينقذونها من الانحلال والتأخر ومن كل ضروب الشقاء الذى تعانيه . . .

ولقد رأيتهم تلك الليلة ، رأيتهم بنفسى بعد أن عبرت مع صديق منهم ذلك الزقاق القصير الرطب المؤدى إليهم وهو يشير إلى الدكاكين التى يجدون فيها وسائل معيشتهم ، فهناك « مكوجى الأمراء » يتعهد ثيابهم بالغسيل والكى ، وهناك « صالون السعادة » ، « يتعهد شعورهم بالقص ولحاهم بالحلق ، وهناك « مطعم الحرية » ، يتناولون فيه طعامهم أحيانًا ، و « بقالة الأمانة » ، يجدون فيهم حاجتهم من السجائر والبن والسكر والشاى ، ثم « مقهى الوطنية » يجلسون فيه ولا سيما فى أيام الصيف . . . وكان الزقاق ينتهى بباب خشبى كبير ، دفعناه فأحدث صريراً مسموعًا ، ثم صعدنا درجات السلم الخشبى المرتفع الطويل وأنا أتوكأ على عصاى ، وكأنما أشياء خفية تتكسر دائمًا تحت أقدامنا . . . خمس طبقات صعدناها حتى وصلنا إلى غرفة فى أعلى البناء . . . وكانت القاهرة قد استنشقت فى ذلك اليوم عبير الشتاء المتفتح لأول مرة ، وخلفت الشمس بعد مغيبها نوراً إلهيًّا ناصعًا غمر الأفق الغربى زمنًا غير قصير ، وبدا القمر فى الشرق متدثراً يخطر بين سحبه الناعمة المترفة البيضاء ، وأخذ النسيم البارد يلفح أسطح المنازل ، ويغمر فى عنفوانه الشاب هذه الغرفة ذات السر الكبير ، ماضيًا فى رحلته الليلية خلال المدن والقرى والصحارى والبحار . . .

ولقد رأيتهم جميعًا والوجوم يختلط بروح التهكم فى وجوههم وساعة

الجامعة تدق قريباً منا تسع دقات ، وهناك سرير وسط الغرفة ، وأرفف متشبثة بجدرانها مرصوصة فوقها كتب فى الفن والفلسفة والأدب ، ومنضدة ملطخة عليها أدوات مبعثرة للرسم ، ولوحات قلائل معلقة فوق الجدران . . . وفى الركن الغربى مصباح بترولى يرتجف ، رأيت على ضوئه صورة رائعة كأنما تنبعث من حلم فرعونى قديم ، حيث إيزيس العذراء جالسة ترضع من ثديها الناضج البكر ابنها الصقر حورس ، وفى شعرها وعينيها لمحات من نور الله ، وكانوا يكادون ينتهون من طعام لم أتبين منه إلا بقايا الخبز ثم رائحة الذرة المشوية .

ويبدو أن روح الشاعر كانت قد تسربت فى مطلع هذا الشتاء إلى شمسه الغاربة وقمره المتدثر ، ثم اطمأنت إلى هذه الغرفة فى ذلك الهزيع من الليل ، وكانت الآن قد تسللت إلى قلوبهم وانتشرت على وجوههم وغمرت لوحة إيزيس الجاثمة تحت المصباح المرتجف ، وهم يتحادثون ويتناقشون . . .

وفجأة لمحت فى يد صديقى صورة لفتاة حسناء ربما كانت فى العشرين من عمرها ، فرفعت بصرى إلى صورة العذراء التى قيل لى إن صاحبها أتم رسمها بالأمس فقط ، محاولا أن أدرك أية صلة كامنة بينهما . . .

وانتهى الطعام ، وساعة الجامعة تدق عشر دقات ، والبحث قد تشعب بحيث شمل نقاشاً حول المذاهب والقيم . . . وفى مصر كان بعض شباب الجيل يحاول ما استطاع أن يتعرف على زعماء الفن والفكر فى العالم ، وأن يصل إليه ضجيج الحضارة التى تنهار . . . وذلك فى نفس الوقت الذى كانت فيه القنبلة الذرية قد اخترعت ، والأدوية المهدئة للأعصاب

قد انتشرت ، والبشرية كأنما تعانى المخاض . . .

كانوا يحسون أنه يجمعهم جيل واحد ورعب واحد وأمل واحد ، ويضمهم كذلك شخص واحد . . . هو تلك المرأة التى أقبلت صورتها فى هذا المزيج من الأيل تشيع بعض الطمأنينة فى أرواحهم القلقة الأسيانة . . .

وكانت سلوى فتاة من إحدى محافظات الوجه البحرى ، أقبلت إلى القاهرة كى تنتظم فى جامعتها ، وهى تحمل معها جسداً فى التاسعة عشرة يزدحم خيالات وأوهاماً ، وتتدفق منه روح بكر شاعرية . . . وكانت قد جربت مواهبها المتفتحة فى بيئتها الصغيرة المحدودة ، فأدركت إلى أى حد تستطيع برقتها وإرادتها أن تشيع المرح والطموح فيمن حولها . . .

وفى الجامعة تعرفت بحامد ، وما لبث أن قدمها لزملائه . . . وكانوا فى ذلك الحين لا يزالون يجربون إمكانياتهم ويختبرون قواهم الكامنة ، فهم جميعاً يرسمون وينحتون ويقرضون الشعر ويعزفون الموسيقى . . . وكان لقاؤهم فى أكثر الأحايين عارضاً تفرضه عليهم هذه المشاركة العامة فى السعى الحثيث إلى اكتشاف ذواتهم . . . فلما أقبلت سلوى ، بروحها المتوثبة الخلاقة وظرفها ولباقتها ، وجسدها النحيف المتيقظ ، أخذوا ينتظمون جميعهم ، ويجد كل واحد منهم نفسه فى يسر وسهولة ، ويسرى فى جسده شىء خفى من الرعشة والسرور ، وهو يكشف شيئاً فشيئاً — وفيما بينه وبين نفسه — عن السر العظيم الدفين الذى لا يبوح به لأحد حتى سلوى نفسها . .

وبرغم أن كلا منهم أيقن أنها تحبه دون الباقين ، إلا أنه لا يحب أن يفسد على الآخرين متعتهم ، ولا على نفسه هذه الرفقة التى يجد فيها السعادة



والغبطة والرضا ، فيقنع أن يحبها وأن تحبه دون حاجة إلى هذه الرعاية الخاصة التى قد تلفت الأنظار وتفسد الأمور . . .

وهكذا وجد أحدهم أنه رسامها ، ووجد آخر أنه عازفها ، ووجد حامد أنه شاعرها ، وظن صديقى أنه مثالها ، وأخيراً أقبل خامسهم — وكان أصغرهم — ورأى أن يفلسف هذا جميعه ، وتخصص كل فى دراسته واستقر فى معهده ، وأصبح مجالهم الخاص لا يسمح لإنسان أن يتنفس بينهم بلا موهبة ولو كانت مدعاة . . . حتى هى مضت تجرب إمكانياتها فإذا بها تقرض الشعر . . . وكان هذا تشجيعاً كافياً لأن يكون الشاعر أول من ينقض هذه المعاهدة الصامتة فيذيع حبه على الآخرين ، تساعده على ذلك وسيلته فى التعبير ، على حين يحرص الآخرون على إخفاء ما يعتلج فى صدورهم ، يتلمسونه فيما يبدعونه من فن فى رفق هو أقرب إلى التلميح ، ويشيعونه فيما يعبرون عنه بغير أن يبرزوه ولا أن يفصحوا عنه . . .

فى ذلك الوقت كان شباب الجيل ينتشرون فى مدن مصر ، ما بين المقاهى يقتلون الوقت وبين الطرقات الكبيرة يتسكعون وراء الفتيات ، وقد ربط بينهم إحساس بالشقاء والفزع ، وتأرجح ما بين اليأس الكبير والأمل الأكبر .

وكان الشيب يدب فى أفوادهم والشيخوخة تشيع فى أرواحهم وهم لا يزالون فى شرخ الشباب . . . وشباب الفلاحين فى قرى مصر وريفها يذوون ويتساقطون فى الأرض . . . فى أرضهم . . . بل فى أرضنا الخصبة السوداء . . .

وأحدهم ، ممن فيه شهوة الفكرة أقوى من شهوة الجسد ، مضى يقول :

– وأعجبنا منها جرأتها فى وقت كانت فيه فتيات الشرق قد نزعن حجابهن ولم يتحررن منه بعد .

وآخر ممن فيه شهوة اللفظ أقوى من شهوتى الفكرة والجسد رفع رأسه قائلا :

– وأعجبنا منها قدرتها على الإرادة والاختيار فى وقت كنا نرى فيه المرأة ما تزال تتقدم إلى الرجل إذعانـًا واستسلامـًا لا إرادة وإعطاء . . .

وقاموا برحلات معـًا يشاهدون فيها آثار القاهرة وضواحيها وتلالها ، واشتركوا جميعهم فى ضروب من النشاط الثقافى والفنى والسياسى ، وأخذ ماضيهم يزدحم بالذكريات ... وكثيراً ما كان يقوم بينهم خلاف أو شجار ، ثم تهل عليهم سلوى بقامتها النحيفة ورقبتها الطويلة ، فيتحول الصياح إلى همس ، والهمس إلى صمت ، وهى – كالغزال – تحنى لهم فى أدب جم رقبتها الرفيعة الملساء ، فيردون عليها تحيتها وهم يلمحون فى عينيها ذلك الوميض الدافئ ، فتنبعث فى قلوبهم رغبة خرساء لا تلمح هى منها إلا رقة تنتشر على محياهم وحماسة تنتشر فى حركاتهم ، حتى إذا تفرق شملهم ، وخلوا إلى ما يبدعون ، وجدوا فى طريقة أدائه ما يعطيهم الجرأة على أن يعترفوا إليه قليلا وأن يصارحوا أنفسهم كثيراً بما يختلج فى أرواحهم ، فإذا مضوا قليلا فى إبداعهم ، توقفوا لحظة وخشوا ألا يصل الإفصاح أو التعبير إلى نهايته ، وكثيراً ما كانوا يشكون فى قوة وصدق وقيمة ما يمارسون ، فلا يلبثون أن يدعوه أو يؤجلوه . . . .

أما حامد فما أذاع حبه عليهم حتى انتشر الارتياح بينهم ، وشاعت

للغبطة فى صدورهم، ووجدوا فى ذلك حجة ضد ما تتهمهم به أنفسهم من إشفاق وتهيب . . . وانتابهم إحساس نبيل سعيد وهم يشجعونه على أن يبوح لها بوسيلة ما عما يكنه من عاطفة نحوها ، ثم يدفعونه ويلحون عليه، حتى استطاعوا فى إحدى ليالى الشتاء الباردة وأمام جمرات المدفأة أن ينتزعوا منه قسماً على أن يفصح لها ، وفى ليلة أخرى جلسوا يحتسون من الشاى ما غلوه للمرة الثالثة وهو يعاهدهم على أن يدرج خطوة نحوها .

ثم يصبح الصبح ويقبل الضحى ويوغل النهار وهو متهيب يرجو الإفصاح ويخشاه ، مدركاً أن الاعتراف أمامهم — وفى شعره — هو التعبير ، وأن الاعتراف أمامها هو الفعل ، ومكتفياً بالتعبير دون الفعل وبالمعاناة إلا معاناة الحصول — وتمضى الأيام وما أدى بهم اعترافه لهم إلا أن بلور أمامهم جانب الرغبة فيهم ، فأوهن كل سعى فى نفوسهم ، ووجدوا ما يبررون به عدولهم عما يحاولونه ويوجسون منه ألا يبلغوه . . .

— ومضت سنتان ونحن نحيا هذه الحياة ، ثم حدث شىء لم يكن فى الحسبان . . .

وكان هذا الحديث شرحاً ، موجهاً إلى ، والغرفة قد امتلأت بدخان اللفائف حتى أخذت الأشياء والوجوه تبدو من خلال ضباب شفاف ، وساعة الجامعة تدق إحدى عشرة دقة ، والمطر يهطل فى الخارج بغزارة ، ويتسرب بعضه من سقف الغرفة سائلا على الجدران فى تلكؤ ، والعذراء إيزيس لا تزال ترتجف ، ولا تحسب أن هذا تعبير شاعرى ، بل أرجوك أن تصدق أنها كانت حقاً ترتجف ، واللهب يرتجف ، وجميعنا

ترتجف . . . وصديقى – الذى يبدو أنه لم يمر بهم منذ زمن – يقول :

– سمعت أنها أنجبت طفلا . . .

– بل طفلا وطفلا . . .

– وكان زوجها مريضًا . . .

– والآن صحيح معافى . . .

– وهل تراها أحرقت أشعارها ؟

– مثلما أحرقها حامد . . .

– وهل تراها أحبت حامداً حقًّا ؟

– بل هو أحبها حقًّا . . .

– لكنه لم يبح لها بشىء فى غير شعره ؟

– مثلما لم تبح له بشىء حتى فى شعرها . . .

وقال أحدهم يتم شرحه لى :

– فذات صباح أقبلت تخبرنا أنها ستزف عما قريب إلى أستاذ لها ، وتدعونا إلى حضور يوم الزفاف . . .

– ومن يومها سعل حامد وظل يسعل ثلاثة أعوام حتى مات . . .

وكان صاحب هذه الجملة الأخيرة قد نطق بها فى انفعال وتأثر كأنما يؤكد قيام هذه الصلة التى يشير إليها من طرف خفى بين رحيل سلوى عنهم وموت شاعرهم . . . ثم صاح – كأنما تنبه أخيراً – وقال :

لماذا تسردون هذه القصة ؟ لقد أعدتموها من قبل مئات المرات ، هيا نقدم شيئًا خيراً من هذا لضيفنا حمدى . . .

وأشار إلىّ ، وأمسك عصاى يتأملها كأنما يدبر مؤامرة . . . وعاد يقول :

— وأين ماء الصودا ؟ لقد قبضت بالأمس أجر أحد الدروس ، وعندى الليلة لكم زجاجتان . . .

وكان جالساً على بساط فوق الأرض ، فانحنى قليلا متكئاً على ذراعه اليمنى ، ثم مد يده اليسرى تحت أحد الرفوف وأخرج زجاجتين . . . وطفح البشر على جميع الوجوه ، فمنذ رحل صديقهم عنهم إلى المصحة وهم لم يقيموا احتفالا . . .

وكان أحدهم جالساً على منضدة الرسم يعبث ببعض الأدوات التى أزاحها عنها ، وآخر جالساً فوق السرير يشاركه فيه صاحبه ، وأنا جالس فوق مقعد كان من الخيزران يوماً ما . . .

. . . وبدأ أحدهم قصة لم يتمها لأنه نسى ما بدأه ، وقام أكثرهم ثملا يخطب فوق المنضدة فقاطعه صديقى وأجلسه ، ثم أصبحت المشكلة الرئيسية هى كيف دخل السرير من الباب ، واستنتج أحدهم أنه لا بد أن يكون السرير قد نشأ صغيراً فى هذه الغرفة ، ثم ظل ينمو حتى أصبح بهذا الحجم ، لكنهم استسخفوا هذا الحل مما أغضب صاحبه غضباً شديداً ، وهنا تدخل صديقى وعرض حلا آخر ، ذلك أن تكون قطع السرير قد أدخلت من الباب مفككة ثم ركبت أجزاؤها داخل هذه الغرفة ، غير أن هذا الحل الجديد ضاع بين الضجيج لأن أكثرهم ثملا وقف على المنضدة يريد أن يخطب من جديد . . .

ولمحت وجهاً يصيح ضاحكاً فى وجه آخر ويقول :

ــ وأنت متى تفسخ خطبتك التى عقدتها منذ ثلاثة أعوام ؟

ــ بل ستحتفلون معى بعد أسبوع بعقد الزواج، ولولا وفاة صديقنا لربما كان الليلة احتفالنا هذا . . .

ــ بل لعله لولا وفاة صديقنا لما انتويت ذلك أبداً، ولولا زواج سلوى لما كانت خطبتك أبداً . . .

وتحرك نحوى صاحب الوجه الثالث يصيح ثملا :

ــ فما اعتزم الخطبة هذا العربيد إلا يوم أبلغوه زواجها ، وما يعتزم الزواج إلا يوم أبلغوه وفاة صديقه . . .

وضحكوا وتشاجروا ، ثم ضحكوا وغضبوا : ثم ضحكوا وضحكوا . . وتلك لوحة إيزيس الندية وما انتشر حولها من لوحات قلائل فى جميعها إفصاح وعبور ، وهذا أحدهم يتهيأ للاحتفال بزواجه بعد أسبوع ، ولئن كانت خطبة هذا العربيد الماضية نوعاً من الانتحار الذى يدفع إليه اليأس ، فلقد بدا أن زواجه الحاضر هو نوع من الخلاص الذى يفديه الألم . . .

ولقد غادرنا الغرفة نحن الخمسة جميعاً ، حين انتصف الليل إلا قليلا ، وبقايا المطر تساقط رذاذاً رقيقاً ، ولا هدف لنا سوى الاندفاع ــ ربما حتى ينبلج الفجر ــ فى طرقات خالية باردة متسعة معتمة ، يتصل بعضها ببعض فلا تفضى إلى شىء . . .

وكانت جميع الدكاكين قد أغلقت ولم يبق إلا المقهى وصاحبه يهم بإغلاقه ، والسماء توشك أن تصفو مما تلبد بها من غيوم فى أول الليل ،

والقمر يبدو هادئاً صامتاً في منتصف الطريق بين الأرض والسماء ، وطرقات المدينة تمتد كأنها الأبد ، وتلتمع فى أرضها المبتلة أضواء المصابيح المنتصبة فى يقظة وسكون ، ويختلج فيها نسيم ندى تشيع فيه عذوبة حبلى بالحركة والحياة ، وهم يحسون فى هذه الحرية الليلية الساكنة اللامتناهية أنهم يسعون كل شيء ولا شيء يسعهم ، فانطلقوا يترنمون ويصخبون ، ثم يتناقشون ويتهامسون ، ثم يضحكون ويضحكون . . .

غير أنى كنت أحس أنهم يفعلون ذلك لآخر مرة فى حياتهم . وكنت أدرك أن وفاة صديقهم أرعبتهم ، غير أنى كنت أدرك أيضاً أن الألم هنا هو بدء الطريق . . . فأنا أعلم أن المأساة ليست سوى جانب من جوانب الحديث ، بل أنا أعلم أكثر من هذا : أن كل مأساة تحمل معها عنصر خلاصها ، وأن النور يضيء فى الظلمة . . .

فى ذلك الوقت كانت قد اكتشفت طريقة لمعالجة شلل الأطفال ، وكان قد ابتكر أسلوب جديد لحفظ المعادن والآلات من الصدأ ، واخترعت آلة تحل مائة ألف مسألة فى دقيقة واحدة ، وتوصل العلماء إلى أخرى تقيس ما يكون ثخانته أقل من الشعرة البشرية بثلثمائة ضعف ، واكتشف قطب مغناطيسى آخر فى شمال الكرة الأرضية ، وأجريت تجارب لإعادة الحياة بعد الموت ، وكان حكم الإعدام قد ألغى فى بعض جهات العالم . . .

سبتمبر ١٩٥٠

الوبـاء



كانت فى الثلاثين من عمرها ، وهو عمر بدأ منه عظماء كثيرون رسالتهم . . . إذن فقد زلت عندما كانت فى العشرين من عمرها ، عندما كانت قد غادرت سن المراهقة وأصبحت ذات إرادة وذات جمال . . . وكانت من أسرة من الطبقة الوسطى ، حيث الحدث الجنسي مرتبط بالخطيئة والله والجحيم ، ولما كان الخلاص الوحيد من الجريمة أمامها هو أن تظل مجرمة بقية حياتها ، فقد فرت لتقع فى يد سيدة تدير متجراً للأشلاء البضة يقصده المحرومون والمعوزون . . . غير أن أخلاق الطبقة الوسطى كانت قد تركت ضميراً عالقـاً بها ، ظل يزعجها فى الليل وفى النهار . . .

وقد مرت الأيام ومرت الشهور ومرت السنون وضميرها لا يزال عالقـاً بها . . . واعتادت هذا اللون من الحياة الصريحة العارية المستخفة ، ورأت من حولها لا يهزأن بشيء مثلما يهزأن بكل من يحاول إقناعهن بفساد حياتهن.. ومع ذلك فقد ظلت تحس أن هذه مرحلة مؤقتة من تجربة حياتها وعليها أن تمر بها ثم تنفصل عنها إلى الأبد . . . وكان هذا حقـاً غريبـاً وشاذاً . . .

وقد بدا الأمر هكذا . . . كان مندوبو هيئة الأمم المتحدة يهاجمون بعضهم بعضاً ، وفى باريس عقد أكبر مؤتمر دولى فى تاريخ السحر ، حيث نجح مندوبو أربع عشرة دولة فى خداع بعضهم بعضا ، فكان الماء يتحول إلى خمر ، وكانت تبدو فى الهواء النقود والسجائر وكرات البلياردو وآلات الكمان ، وكانت المناديل الحريرية تربط نفسها فى عقد

على حين تمر العصى السحرية فى الأجسام . . .

وفجأة ظهر الوباء . . . بدأ أولا بعشرة أشخاص كأنما هو رسالة عظيم : توفى طالب فى الجامعة وسيدة حبلى وطفلان وخمسة فلاحين وصبى عبيط أعرج ... وكان هؤلاء هم شهداء الرسالة الجديدة ؛ بموتهم حملوا الخلاص إلى بقية الشعب . . . ظلوا يتقيأون ويتبرزون برازاً سائلا أبيض كالأرز حتى جفت أمعاؤهم وتثلجت أطرافهم . . . وقد ظن أول الأمر أن وفاتهم بالأعراض الواحدة نتيجة للمصادفة الخالصة أو هى حوادث تسمم متشابهة ، لكن سرعان ما كشف الطبيب المختص عن الحقيقة التى روعت ملايين السكان . . .

وفى الصباح قيل لتلاميذ المدارس أن يعودوا إلى منازلهم . . . وصدر أمر بإغلاق الأسواق ، فحملت كل فلاحة دجاجاتها ، وشد الفلاحون رباط بهائمهم الهزيلة المعروضة للبيع وأقفل الجميع إلى قراهم . . . وكف المثقفون عن جدالهم حول معنى الحياة وعدلوا عن رغبتهم فى الموت ، وتملكهم تشبث مجنون بالأرض ، وانفضت الموالد ، وسارعت الحكومة إلى منع الاجتماعات العامة ، وخلت دور السينما من روادها ، وأقفرت المطاعم والمقاهى ، وأغلقت الحمامات ومحال بيع البوظة . . . وأصبح كل فرد ما بين يأس وأمل ، يأس أن يصيبه المرض هو دون باقى الناس ، وأمل أن يصيب باقى الناس دونه هو . . . ورأى بعض المتدينين أنه أمر أعمار فى لوح القدر ، ليس الوباء سوى وسيلة إليها . . .

فلما انحدرت شمس ذلك اليوم كانت صحف المساء قد أعلنت أنه

صدر الأمر بوقف الحج هذا العام . . . وهكذا رفض الله محاولتها . . .

كانت تعتزم فى كل عام أن تحج لتكفر عن حياتها الملوثة ، وتعود تعرض بضاعة غير جسدها ، غير أنها كانت تعدل فى كل مرة ، وفى هذا العام صامت رمضان ، وقررت السفر ، وأعدت الجواز واشترت التذاكر ، وسافر من قبلها فوج وفوج . . . وعند ما أوشك أن يقوم حاجز كبير بينها وبين ماضيها ، أدركت أن الله رفض نقودها ومحاولتها .

وفى اليوم التالى ذكرت الصحف أن الإصابات تسع وعشرون والوفيات سبع ، وفى اليوم الثالث كانت الإصابات أربعًا وتسعين والوفيات إحدى عشرة ، وفى اليوم الرابع كانت الإصابات مائة وخمسين والوفيات سبعًا وعشرين ، وفى اليوم الخامس هرب أحد الملوثين من قريته إلى عاصمة القطر الثانية مخبأ فى برميل بسيارة نقل تنقل البضائع ، فما إن وصل إلى هناك حتى ارتمى يتلوى . . .

وهكذا أفلت الزمام وأعلن أن القطر كله منطقة موبوءة . . . وبدأت المعركة الجبارة بين الناس وعدو صغير منتشر فى الأطعمة والأجساد ، لكنه لا يرى ، مما مده بقدرة خارقة على إرعاب الناس وإزعاجهم . . .

ومنذ أكثر من ألف عام جاء فى « ذيل الروضتين لأبى شامة المقدسى الدمشقى » أنه لم يزد نيل مصر واشتد الغلاء والوباء حتى مات أكثر الناس جوعًا وأكل بعضهم بعضًا . . .

وفى الوقت الذى كان الناس يتزاحمون فيه حول مكاتب الصحة يطلبون اللقاح الواقى ، كانت نعمات تستعد للعودة مع أفواج الذين لم يقدر لهم أن

يروا بيت الله الحرام هذا العام . . . لكن أحداً غيرى لم يكن يعلم شيئاً عن معنى الحج فى حياة هذه المرأة ، ولا كان ثمة آخر يدرك أن هذه المحاولة إن هى إلا رغبة بلورتها سنوات عشر من الذهب والقذارة والدم . . .

وفى ضحى اليوم السابع من الشهر الأول للوباء حاول رجل بدين أن يركب أحد القطارات المتجهة إلى العاصمة ، فرأى فيه زحمة الناس وتكالبهم على نحو لم يسبق له مثيل ، وأدرك أنه لا يمكنه أن يجد مكاناً لشخص واحد فضلا عن أنه يحتل مكان شخص ونصف شخص . . .

وعندئذ وضع أصبعه فى فمه ، ورآه الجميع يتقيأ فهرولوا فى ذعر هامسين أولا ، ثم صائحين :

— مصاب . . . مصاب . . .

ولم يكن فيهم بخيل واحد يحرص على مقعده ، ولا قديس يبقى إلى جانب الرجل . . . بل تدافعوا جميعهم إلى العربة وأخلوها كلها له . . . أما البدين فجلس واضعاً يده على بطنه كلما بدا له من العربة الأخرى وجه فضولى ينظر ليتحقق أنه ما يزال على قيد الحياة . . . فلما وصل المسافرون الجبناء إلى المحط النهائى هرولوا إلى الضابط المختص ينتقمون من هذا الذى أزعجهم وأخذ منهم مقاعدهم ويبدون له أعمق الإشفاق وأعمق الرثاء ، غير أن البدين سرعان ما خيب إشفاقهم حين أفهم الضابط أنه استغل مقتضى الحال كوسيلة لإيجاد مقعد له ، فما كان من كرم الناس إلا أن وهبوه عربة كاملة . . .

وهكذا شمل الرعب الجميع . . .

فى ذلك الوقت كنت أنا قد أشرفت على الثالثة والعشرين ، حين كان

العالم قد أصبح مهدداً بالقنابل الذرية ، وثمة مذابح فى الهند وجزرة فى اليونان لا تنتهى ، أما مؤتمر السحرة فكان قد انفض . . .

فى ذلك الوقت كانت الليمونة تباع بمليمين . . . ثم نشرت إحدى الصحف أن عصير الليمون الحمضى يقى من المرض . . . وسرعان ما ارتفع سعر الليمونة إلى خمسة مليمات ، ثم إلى سبعة مليمات ، ثم إلى عشرة مليمات ، وأخيراً نفد الليمون من كل مكان وقطف وهو لما يزل أخضر على شجيراته ، وبعد أن كوم كل فى منزله كومة من الليمون عادت إحدى الصحف ونشرت أنه قد اتضح عدم دقة هذه المعلومات ، وسرعان ما عاد الليمون إلى الظهور . . .

وأنا لم أتحدث بعد عن نفسى . . . وهذا أمر لا شك متكلف ، فلئن كان من الأنانية أو الفردية أن تجعل نفسك محور الحديث فإنه من غير الطبيعى ألا تذكر نفسك أبداً . . .

هذا إلى أنى كنت صديق نعمات ، بل لعلى أكون حبيبها المفضل . . . فحين زرتها لأول مرة مع صديق لى أعطيتها كل ما كان معى من نقود فمانعت فى أول الأمر وأبت أن تأخذ إلا أجرها ، لكننى أصررت أن تقبل ما أعطيتها ، ويبدو أنها تأثرت بذلك كثيراً مما يرجح أنها لم تلق من قبل مثل هذا التعبير عن الامتنان ... أما أنا فلم أبادلها حبها ذلك أنى متعلق بفتاة أخرى فتاة لست أقابلها ولن أتزوجها ولا أحبها ولكننى متعلق بها ...

فمنذ السادسة عشرة من عمرى حتى العشرين كنا نتبادل الحب أو هكذا كنا نظن ، أربع سنوات كاملة كأنها مدة أمضيتها فى وظيفة ما . . . ثم حدثت أزمة ، أزمة سخيفة أبعدتها عنى ، لكنها لا تزال باقية فى حياتى

مسيطرة عليها ، تحطم لى كل محاولة أن أعيش سعيداً . . .

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف نعمات ، قامت لى بأعظم خدمة فى الوجود ، فهناك عندها أردت أن أنسى ولو أنى ما نسيت ! !

وكانت تعلننى بين حين وآخر برغبتها فى الانصراف عن هذا اللون من الحياة (وهو مالا تقوله أبداً لأحد غيرى) ، ثم أراها تتردد وتعدل . . . ولما كانت تربط هذه الرغبة بالسفر إلى بيت الله الحرام ، فإننى ما دهشت حين أخبرتنى ذات مساء بما أزمعت عليه من سفر ، تعود بعده لتجد عملا بين جيش العمال والعاملات الذى أخذ يملأ المصانع الناشئة هنا وهناك . . .

وفكرت أن أتزوجها ، لكن منعتنى إنعام (وهى الفتاة التى كنت أحبها ، وأنت تلحظ قرب اسمها من اسم نعمات) ، إذ زارتنى فى الحلم ، وكانت رقيقة معى كل الرقة ، لطيفة معى كل اللطف ، قبلتنى قبلتين : إحداهما فى جبهتى ، والأخرى على شفتى ، وأذنت لى — برغم الفرقة التى بيننا — أن أحتضنها قليلا فأحس بدفئها . . . وبرغم أنى عندما صحوت حاولت أن أنفذ ما كنت قد اعتزمته ، إلا أن الأثر العاطفى الذى خلفه الحلم كان قوياً للغاية : بحيث إنى عندما نمت الليلة التالية تمنيت أن أحلم حلماً آخر . . .

وفى الطرق والأزقة والحارات كان رجال الشرطة يطاردون الباعة المتجولين ويقلبون لهم الفطائر والبلح والترمس والحلوى وفصائل الذباب تتطاير أمامهم ، فيهرول الباعة ويختفون عن الأنظار من حارة إلى حارة ، حتى إذا غادر المكان رجال الشرطة عادوا وافترشوا الأرض كما كانوا يفعلون

وعاد للذباب معهم من جديد .

وفى فجر اليوم الرابع عشر من الشهر الأول للوباء بدأت الطائرات بإلقاء الغازات على الأماكن المزدحمة بالذباب ، وفى ضحى ذلك اليوم كان ثلاثون فى المائة منه قد اختنق وبقيته تترنح وتعانى سكرات الموت ، فلما كان الغروب أعلن أن إبادته قد تمت . . .

ولشد ما دهشت حين رأيتنى أمام نعمات . . . وكان مبعث الدهشة هو أنى سبقتها إلى الحج بخيالى . . . فبرغم أنى لم أحج أبداً — وربما لن يتاح لى ذلك — إلا أننى استطعت أن أتخيلها بين هذه الزحمة من الحجاج وأتخيل هذا الأثر العظيم الذى يمكن أن يحدثه فى امرأة مثلها ما تفعله وما تراه وما تفكر فيه هناك . . . غير أنى وجدتها أمامى فجأة ، فى الوقت نفسه الذى كنت أتخيلها فيه على سطح الباخرة ، وفى نفس الوقت الذى كنت أتأمل فيه معنى الحياة ومعنى الموت ... وكان ذلك يوم عيد ميلادى ، يوم أتممت الثالثة والعشرين ، فرأيت أن أحتفل به مع نعمات . . .

وفى القرى كان الفقراء يحملون موتاهم على الجمال ، ثم يذهبون بهم إلى الجبل كى يدفنوهم . . . لكن المشيعين — كالموتى — لا يعودون ، يبتعلهم الجبل بعد ما يتقيأون ويتبرزون بضع ساعات . . . وعندما تمر بقية الأحياء فى أحياء القرية الضيقة ويلمحون علامة على أحد الأبواب المغلقة يدركون أن الوباء قد غزا هذا المكان ولامكان فيه للإنسان . . .

وكان المساء قد اقترب . قلت لها :

— تعالى نكفر عن ذنوبنا ، هيا نطهرها . . .

قالت :

– كيف ؟ . . .

وتذكرت طريق الحج وأماكنه المقدسة الرهيبة . . . قلت :

نمشى على جسر من جسور النيل . . .

فحملقت عجباً . . . كانت تعلم أن مصيرنا الذى نحياه أقوى من أن تنتزعنا منه مشية على النيل ، إنه ليس مستقلا عن الأرض ، فمن هذه الأرض تنبعث قيود وعلاقات تجذبنا دائماً نحو مصيرنا الذى نحياه ونحاول الفرار منه . . . وهى تعرض والناس يشترون، حتى إذا عشنا لحظة معاً نسينا قصة البيع والشراء ، هى ترضى هنا أنبل عواطفها التى تئدها أمام بيئتها ، وأنا أحاول أن أنسى ما لا يمكن نسيانه . .

وأنت إذا مررت بهؤلاء النسوة فى أحد أحيائهن وهن منتشرات فيه كالذباب لم تشهد غير الاستهتار الذى يزعجك كإنسان مهذب ، فإذا اقتربت منهن وجدت أن الأمر لا يعدو نوعاً من التجارة الجادة التى لا هزل فيها ، فإذا اقتربت أكثر من إحداهن عرفت تاريخاً مؤلماً يخلق فى صلتك بها نوعاً من الحنان الذى يشيع بعضاً من روح الإنسانية فى نظرتك إليها . . .

قالت إنها تشعر ببعض التوعك ... وكنا نسير فى طريق من المدينة شبه مهجور ... وقالت إنها تخاف ، ووضعت يدها على بطنها وما لبثت أن تقيأت ...

لا تنزعج ، سأطمئنك ، لم يكن ما أصابها سوى تقيؤ هستيرى ... نوع من العدوى التى لا تمس الجسد لكنها تصيب الروح . وكان هذا كافياً

لإلفات نظر رجل الشرطة ، وكان كافياً لأن يولى هارباً فلا يعود إلا ومعه ضجة من الشرطة والممرضين . . .

وزعمت أنها أختى أو زوجى (لست أذكر تماماً) ، وهكذا وجدنا أنفسنا فى غرفة متسعة بها فراش على الأرض قيل لنا إنها المعزل ريثما يعدون لنا مكاناً فى المستشفى القريب . . . وكنا وحدنا . . .

ولم يأتنا طبيب . . . وكان من المتوقع أن يفصلوا بيننا ، فهى مريضة وأنا ملوث ، وهى امرأة وأنا رجل . . . لكن لم يجرؤ أحد على أن يقترب منا ، فقط سمعنا أحدهم يصيح قائلا إن إصابتين حدثتا الليلة بالمدينة : إحداهما حيث كنا والأخرى بمستشفى المجاذيب ! !

وكنت أحسبنى فى ذلك الوقت ماوثاً ، وكنت أحس أننى قوى بما أحمل من مرض ، إننى أخيف بمرضى كل هؤلاء الأصحاء ، أستطيع أن أقترب منهم فأنشر العدوى بينهم وتتساقط جثثهم كأوراق الخريف . . . وكانت هى وحدها التى لا تخاف ، لأنها المريضة الوحيدة إلى جانبى ، ولأنها تحبنى . . .

ويبدو أننى نمت وقتاً غير قصير ، فعندما فتحت عينى كانت الظلمة تغمرنا ، وكنت قد أخذت أتساءل عن قيمة اللحظات التى نعيشها ولاسيما إذا كان الإنسان قد انفصل عن المرأة التى ربط وجوده بوجودها . . . وفكرت أن أقوم وأفتح الباب وأنبه الواقف به إلى هذه الحقيقة . . . لكننى أدركت أننى ملوث ، وأنه لن يسمح لى أحد أن أقترب منه لئلا يأخذ منى العدوى ويموت ، فلن يلبث أن يهرب إذا رآنى ، وحسناً يفعل . . .

وأردت أن أتأملها ، فأشعلت عود ثقاب أضاء وجهها لحظة ، وتراقصت الظلال على جدران الغرفة الخيالية المتسعة . . . كانت مستيقظة ، وهى مستلقية إلى جانبي فى ثوبها القاتم الشفاف ، وكانت قد تحسنت كثيراً وعصبت رأسها بمنديل حريرى أزرق ولمحت على وجهى علامات كآبة ، وانطفأ النور وعدنا نتنفس فى الظلام . . . وكان إيمانها بالحياة قد ساعدها على أن تدرك أنها ليست مريضة ، وكنت قد أشرت إليها من قبل أنه قد يكون مجرد تقيؤ هستيرى . . . وكانت الآن قد تأكدت من صحة ما أقول ، فسمعتها تقول ضاحكة :

ــ لماذا أنت واجم يا أحمد ، هل أصابك الوباء أنت أيضًا ؟ . . .

ــ بل أنا مكتئب لأنى أقضى ليلة ميلادى هنا . . .

ــ بل هيا نحتفل به ! . . .

ــ كيف ؟ .

ــ بأن أدغدغك فتضحك ! .

وانفجرت فى قهقهة عالية ، وفجأة صمت . . .

فى ذلك الوقت كان العالم يستعد لحرب جديدة بغير أن يحاول التخلص من آثار الحرب الأخيرة ، وكان كثير من المفكرين قد اقتنعوا بأن الحياة لا مغزى لها ، وكان الفقراء والبغايا يزحمون العالم ، على حين انتشر الوباء يزحف وينشر الموت والرعب بين الجماهير فى كل مكان . . .

وكان هذا هو سر قوتى ، فلى القدرة أن أستمر فى قهقهة عالية ، ولى القدرة أن أصمت فجأة فى أى وقت .

أكتوبر ١٩٥٠

القيظ



القيظ

محمود شاب مثقف ، وهذه لعنة كافية فى هذا العصر . . . فهو شغوف بأن يخلق الصعاب زاعماً أنه سيتغلب عليها ، فمثلا ، عندما صحا صباح هذا اليوم تخيل أن تدخينه للسجائر أصبح عادة سخيفة تسيطر عليه ، وهو يحب أن يكون حرًّا ، فالحرية عنده لا تكون أحياناً إلا محاولة الإفلات من عادة كتدخين السجائر . . . ولهذا قرر أن يمتنع عنها منذ اليوم . . . وهو لا يدرى لماذا اختار هذا اليوم بالذات من هذا الفصل من العام . . . فهو يزعم أنه لولا هذا القيظ الملعون الذى غمر النهار كله منذ الفجر ، وجثم على أنفاس المدينة ومنازلها الضيقة المزدحمة ، لاستطاع أن ينتصر فى معركته التى خلقها ، غير أن شدة الحر سببت له صداعاً شديداً ، وأضعفت قليلا من هذه الرغبة فى إقامة أى نوع من المقاومة . . وهكذا عدل عن محاولته بعد ساعة واحدة من قراره ، ظل فى كل دقيقة من دقائقها يذكر أنه لن يدخن ، لن يدخن . . . حتى تضخمت أمامه كل الأشياء ، ورقصت الحروف التى كان يقرؤها ، وسال العرق فى خفة على جبهته ، وأمسك بالسيجارة فأشعلها ، ثم ذهب فى شبه غيبوبة نشوانة . . . لكن هذا لا يحدث للمثقفين فقط ، بل هو يحدث لكثيرين ممن يتنبهون فجأة فيجدون عادة قد سيطرت عليهم ، وبذا يقررون أن يقيموا معركة بينها وبينهم ، وما من سبب إلا أن يثبتوا أمام أنفسهم أنهم أمام قوى لا يخضعون

لها ، وهم يجدون فى هذا مرانـًا لذيذاً لإرادتهم ، غير أنهم يدركون بعد ساعة واحدة ، أو ربما بعد شهور أنهم خلقوا معركة كى يثبتوا فيها هزيمتهم على أنهم يحتفظون على أية حال بذكرى ذلك الصراع ، ويقصونه حين تتقدم بهم السنون ، فهو قد دام ساعة أو ثلاثة عشر يومـًا أو سبعة شهور وهكذا .

وفى الضحى كان الطريق المهجور يتعذب من الظمأ . . . وفى زاوية من زواياه برز شاب يجفف عرقه وهو يتجه نحو بائع السجائر . . . وفى المساء كان عليه أن يقابل « إلهام » — وهو اسم جميل بلا شك — ويخبرها أنه سيخطبها ، غير أنه سيعلق خطبتها على شرط عليها أن تنفذه .

وفى المدينة كان الثلج قد نفد ، فكنت لا تستطيع الحصول على شىء مثلج إلا بثمن مرتفع ، وكانت أعمدة الترام النحاسية لا يمكن لمسها ... بينما اكتظت الفتيات — وهن يمسحن عرقهن ومساحيقهن — محشورات بين رجال ثارت غرائزهم ، وفى الطريق كان السائرون يتجمعون كالذباب حول بائعى الغازوزة وعصير الفواكه والقصب يجففون عرقهم ويلهثون كالكلاب . . .

أما أمه فكانت قد نسيت أن تغلى اللبن ففسد ، وأخته تعانى مغصـًا ، على حين وقفت حمارة فجأة وسط الطريق المهجور وأفسحت ما بين قدميها الخلفيتين ، ثم روت قليلا هذه الأرض المعذبة ... وراجت إشاعة فى المدينة مؤداها أن العالم كله أصبح شراً ، فرأى الله أن يوفر على نفسه عملية نقل الناس إلى الجحيم بأن جعل من الأرض نفسها جحيمـًا . . .

على أية حال ، كانت فى حياته ثلاث فتيات ، احتللن بؤرة حياته

الواحدة بعد الأخرى كعربات القطار . . . أما على هامش حياته فكان عدد أكثر قليلا ، وهو لا يفصل بين الحب والشهوة . . . ذلك الفصل الذى شاع بين شباب العصر وفسره علماء النفس بأنه تعلق بالألم . . . فكل من كان محمود يحب روحها فهو يحب جسدها كذلك . . . غير أن هؤلاء اللاتى يضعهن على هامش حياته قد أحب منهن أجسادهن دون التعلق بأرواحهن . . . ومن الغريب — فى رأيه — أن الفتيات الثلاث بخلن عليه بأرواحهن وأجسادهن فى حين بذلت له الأخريات ما أراد بغير ما مقابل إلا اللذة العابرة . . . وكان هذا ما يدهشه ويحيره فى حياته حقًّا . . .

وقد اضطر أصحاب الموتى فى المدينة أن يعجلوا بدفن أحبائهم الموتى فى هذا اليوم قبل أن تزكمهم رائحتهم النتنة . . . وعندما جاءت الظهيرة كانت المحال العامة تروى ظمأ زبائنها بماء يكاد يغلى لأن المياه الباردة أتى عليها رواد الضحى . . . ورجال الحريق كانوا على استعداد لتلقى أى نبأ ، وقد ازدحمت الحمامات وارتفعت فيها الأسعار ، وأعلن الراديو أن المدينة لم تعان مثل هذا القيظ منذ أكثر من نصف قرن . . .

وكان على محمود أن ينتظر حتى المساء . . . ولن يخلصه من ملل الانتظار والحرارة إلا التدخين . . . وكان القيظ فظيعًا حقًّا ، فعندما أرسل غلامه الصغير كى يشترى له السجائر ، عاد يزعق . . . فقد كان حافى القدمين، وأرض الطريق قد اكتست بالجمر . . . فاضطر أن يخرج بنفسه إلى الطريق المهجور ، وهو يحس أنه يسير وسط أتون ، وأن ثمة دوامات نارية تنبعث من أسفل ومن فوق ومن شمال ومن يمين ومن

الوراء ومن الأمام ومن هنا وهناك ومن كل مكان . . . لكنه واصل سيره بشجاعة حتى وصل إلى بائع السجائر .

وكان بائع السجائر شاباً صغيراً ضاعت إحدى عينيه فى حادث ما — ربما أقصه عليك فى قصة أخرى — فوضع عليها زجاجة لنظارة سوداء ربطها إلى أذنيه بقطعتين من قماش ، وترك العين الأخرى تتمتع بحريتها ، وكانت هذه الطريقة — فى رأيه — كفيلة بأن تخفى عاهته أمام الخادمات اللائى يأتين بقباقيبهن ليشترين منه السجائر لأسيادهن ، غير أن هذا لم يكن رأيى ، فقد كان من المؤكد أن جميع الذين عبروا عليه لأول وهلة ، يدركون أن خلف هذه الزجاجة السمراء شيئاً مخجلا لصاحبه . . .

وكان اسم بائع السجائر أيضاً محمود . . . وكان محمود — بائع السجائر — قد رأى محمود المثقف — آتياً من زاوية الطريق وعرف أنه يقصده ، فأبعد الجريدة من أمام عينه — السليمة طبعاً — وقد جمع منها محصولا لا بأس به ، ظل عالقاً منه بذهنه شيئان : النظام الجديد للتجنيد الإجبارى فى مصر ، والحرب العالمية الثالثة . . . وكان ككل الذين حوله — يهتم بالموقف العام كى يرى أين هو منه ، وقد ربط ربطاً آلياً بين التجنيد والحرب ، ففزع بعض الشىء ، ولو أنه اطمأن إلى أنه لن يجند بسبب عينه « الفاسدة بالطبع هذه المرة » .

غير أن محمود كان يبتسم ، وكان يفكر فيما يفكر فيه محمود نفسه ، وكان مثار الابتسامة على شفتيه فكرة فلسفية ... ذلك أن التجنيد والحرب سيخلصانه من أشياء كثيرة متعفنة فى نفسه ، وسيغيران من حياته الخاملة الرتيبة . . .

واقترب محمود من دكان محمود ، وظل يسير وسط اللفح واللهيب فى الطريق المترب ، حتى رأى نفسه مقبلا نحو نفسه فى المرآة التى علقها أمام دكانه . . .

كان محمود البائع سيعقد خطبته الليلة . . . والواقع أنه كان ينوى الزواج إلا أنه لم يوفق فى العثور على مسكن بأجر مناسب بسبب أزمة المساكن . . . وقد رأى أن يدعو محمود ، لعل الدعوة كانت للإخبار فحسب . . . قال له :

– ستأتى الليلة يا محمود بك ؟

– وكان محمود (بك) مشغولا يتطلع باحثا عن سيجارته المفضلة ، فالتفت إلى محمود ، وقال :

– لأحضر كتب الكتاب ؟

– بل مجرد خطبة فى الساعة الثامنة من مساء اليوم .

– ولن تعلق خطبتك على شرط معين ؟

– ماذا ؟ . . آه . . ما أكثر الشروط والاشتراطات يا سيدى فى هذه الأمور وهى من جانب أهلها أكثر مما هى من جانبى .

– وهل عندك اليوم تبغ بدلا من اللفائف ؟

– نعم يا سيدى ، بلا شك ، هاك .

فقاطعه محمود :

– ما هذه الحرارة ؟ لقد قال المذيع إننا لم نعرف مثل هذا منذ حوالى ستين عاما . . .

وعبرت عليهما موجة من اللهيب ، ثم غمرت الطريق كله ، واستقرت بعض اللحظة ، ومحمود يعرض على محمود أصناف التبغ . . .

ولم يكن في إمكان محمود أن يلحظ نفسه في المرآة المعلقة وهو يبتعد شيئاً فشيئاً عن نفسه .

وفي مساء ذلك اليوم رئي محمود وهو يدخن غليونه في مشرب مارلي بشارع قصر النيل أمام مكتبة كتان .

كان قد تحرج من رفض الدعوة فوعده بالحضور . . . وكان يدرك أنه في مثل هذه الساعة تماماً سيذهب ليفقد فتاته إلهام .

ولسنا نعرف ما هو اسم عروس بائعنا محمود ، وليس من المستبعد أن تكون إلهام كذلك ، ولكن لا تتسرع وتظن أن هناك حيلة قصصية تجعل من إلهام عروس البائع هي نفس إلهام الفتاة الثالثة في حياة محمود شابنا المثقف ، فوجود الهوات بين هذه الفئات تجعل حدوث هذه المصادفات أمراً نادر الحدوث . . . ولماذا نذهب في الاستدلال في حين نرى الواقع يقول لنا إنه في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كانت هناك فتاتان ، إحداهما تزف أو تخطب إلى محمود في حارة المغربلين رقم ٣ حيث أضيئت الكلوبات فأضافت إلى الحر حرارة ، والأخرى تجلس مع محمود وهو يدخن غليونه في مشرب مارلي .

لم يكن محمود واثقاً من نفسه إلى هذا الحد الذي به يعلق خطبته لفتاة على شرط تنفذه هي أولا . . . فهو يدرك أنه ليس أسهل من فقده الفتيات ، فلقد فقد من قبل فتاة وفتاة غير أنه كان يحس أن حياته اليوم قد وصلت

إلى مأزق ، وكان هذا هو الذى يقويه ويجعلنا نتوهم أنه واثق من نفسه كل الثقة ، بينما هولا يملك ما يضمن به شيئاً . . . ثقة أساسها الاستهتار . . . وهى إن نفذت هذا الشرط فلربما نجا من المأزق ، فإن لم تنفذه فإما أن يظل يحيا حياته المنحرفة المظلمة الكئيبة ، وإما أن يتزوجها فيرتبط بها ارتباطاً سخيفاً من نوع ارتباطه باللفائف والتبغ ، حيث يقيم معركة بينه وبينها من حين لآخر كى يجرب شخصيته ويمتحن إرادته . . . إذن لم يكن يرى الحرية — مثلما يراها بائع السجائر وأمثاله — فى الارتباط بعادة يحبها ويألفها . . . وإذن لم يكن بينهما ما يمكن أن نسميه بالحب.. بل هو نوع من العملية الحسابية التى قام بها محمود وحده ورأى أن يشمل فيها إلهام أو يدعها إلى الأبد .

ولم يكن هناك غيرهما فى المكان عدا أصحاب المشرب وخدمه . . . وطلبا شراباً مثلجاً ثم شراباً ساخناً ثم آخر مثلجاً . . . ونضح العرق من وجهيهما وملابسهما وهما يتحدثان حديثاً فيه الضحكات حيناً وفيه الإرهاق أكثر الأحايين .

أما سكان المدينة فكانوا قد اكتظوا رجالا ونساء فى دور السينما التى تعرض قصصها وضجيج موسيقاها فى الهواء الطلق ، وعندما ارتفعت درجة الحرارة بحيث سجل مقياسها أربعين درجة أصبح يخشى ازديادها فيتعرض بذلك خمسمائة على الأقل من سكان المدينة للموت بضربة الشمس . . . وفى الساعة الثامنة والنصف أذاع المذيع للمرة الثالثة تقرير مصلحة الطبيعيات ، ويقول إن درجة الحرارة تستمر أربعاً وعشرين ساعة ثم فى فجر

اليوم التالى يعتدل الجو .

ولن أوهم القارئ بأننى لا أعرف ما دار بينهما من حديث ، بل إننى لأدرك الآن مبلغ الرغبة فى تعرف كنه هذا الحديث . ولكنى أخلص إذا قلت إنه حديث ليس من المستبعد أن يبدو تافهاً سخيفاً ، فما أكثر ما يجعل الآخرون سعادتهم تتوقف على شروط تبدو لنا من وجهة نظرنا تافهة سخيفة ، وفى مجرد سردها إملال ومضايقة لنا . . . أليس من الأفضل أن تجعله أنت أى شرط يمكنه أن ينال من تقديرك بحيث يصبح أهلا لخلق مأزق إذا لم يتم تنفيذه ؟

على أية حال لقد رفضت إلهام هذا الشرط ، برغم أنها لا تمانع — إن لم تكن ترغب — فى الزواج من محمود ، فقد كان هذا الشرط يحتاج منها إلى أن تبذل قليلا من الجهد ، وهى ترى ألا تبذل أكثر مما بذلته فى سنواتها العشرين الماضيات . . . كان يطلب منها أن تكافح بعض الشىء لكى تصبح أكثر نضوجاً وثقافة ، وهو مطلب غامض لا معنى له لديها . . . وما كان ليطلبه إلا مثقف مثل محمود ، فهو يرى أنهما بهذا فقط يستطيعان أن يعيشا معاً خيراً مما يعيش سيد مع خادمة . . . أما إلهام فقد شكت فيما إذا كان محمود جاداً فى علاقته القصيرة الماضية بها ، وجاداً فيما يطلبه منها الآن . . . كان كل منهما حرا مستقلا عن الآخر ، لم يعرفا بعد الحرية التى لا تحيا إلا فى الضرورة . . . عندما يصبح كل منهما ضرورة للآخر .

وخرجا وذراعه ملتصقة بذراعها ، والعرق ينضح كثيراً من جسده وأقل



قليلا من جسدها ، كان يمكنه أن يتروجها ، وكان يمكنه أن يدعها ، غير أن العقبة التى خلقها من أجل أن يحصل على إلهام لم يستطع التغلب عليها .

وهو يمكنه الآن أن يستمر يحيا حياته الممزقة الكئيبة ، وهو يمكنه أن يرتبط بها ارتباطاً أسخف من ارتباطه بلفائف الدخان . . . وحاول عبثاً أن ينام . . . كانت غرفته شديدة الحر ليست أقل لهيباً ، فالقيظ يندلع فى كل مكان ، وعب كل ما فى المنزل من مياه باردة حتى سبح فى بحر من العرق فاضطر أن يخلع كل ملابسه وينام عرياناً . . . ومع ذلك فقد ظل ساهراً وهو يذكر أنه عد فى تلك الليلة مائة نجم فقدها فجأة فبدأ يعد من جديد .

وفى الصباح التالى أخذ الجو يعتدل . . . فبدا يغفو قليلا قليلا ، أما محمود ففتح دكانه ومضى يرقب العابرين .

أغسطس ١٩٥٠

زيطة " صانع العاهات



مهداة إلى الأستاذ نجيب محفوظ
صاحب زقاق المدق

صنع يصنع فهو صانع ، وصنع المصنع السيارات ، وصنعت المصانع القنابل ، فهى صناعة ، وهى مصنوعة ، وعم كامل يصنع البسبوسة ، وحسنية الفرانة وزوجها جعدة يصنعان الخبز ، وكانت الست أم حميدة الخاطبة تصنع العائلات ، وصنع المسيح المعجزات ، وصنع زيطة العاهات . . .

وتوفى زيطة فى السجن منذ أيام ، ورأيت أن أتقدم بالتماس إلى الجهات المختصة مطالباً بأن يصنعوا له تمثالا ويقيموه على رأس زقاق المدق ، راجياً أن يفصل حضرات المختصين كل الفصل بين ذلك العمل الإضافى الذى أدى به إلى السجن وأخذ الجزاء عليه ، وبين هذا العمل البطولى الذى وقف زيطة حياته عليه ، والفهم الرائع لمعنى العاهة الذى كان يدركه بحدسه وعبقريته ، وكيف استطاع وحده أن يواجه مدينة صاخبة ضاجة وأن يلبي لها فى إخلاص حاجة ملحة ضرورية . . .

فقد قبض ليل أحد الأيام — ومنذ سنتين — على زيطة وصديقه الملقب بالدكتور بوشى لاتهامهما بسرقة جثث الأموات ، وشاع فى الزقاق أنهما كانا يسرقان طقم الأسنان الذهبى من جثة المرحوم عبد الحميد الطالبى الذى كان بائعاً للدقيق بالمبيضة ، فلما سمعت بذلك الست سنية عفيفى ،

وهى جالسة تشرب القهوة التى صنعتها لنفسها بنفسها ، رمت بطقم أسنانها الذهبي الذى سبق أن صنعه لها الدكتور بوشى ، ثم صرخت وولولت حتى أغمى عليها ، ومنذ ذلك الحين اختفى زيطة وصديقه من حياة الزقاق وانقطع كل منهما عن صناعته ، ومع ذلك فلم تكن سرقة جثث الأموات هى العمل الرئيسى لزيطة ، بل هو عمل إضافى اضطر أخيراً أن يقوم به إلى جانب الصناعة التى وقف عليها حياته . . .

ولقد ولد زيطة لأبوين يصطنعان الشحاذة ، وكان ذلك أول العلامات الدالة على تأهبه للصناعة التى تفرغ لها فيما بعد . . . وكان مجيئه — كمجيء أى صانع عظيم — بعد انتظار وترقب وحاجة . . . فقد كان والده فى حاجة إلى ابن تحمله الأم فى أثناء تجوالها لتثير العطف وتستدر الإحسان وحسن الصنيع ، وقد انتظرا طويلا حتى اضطرا أن يكتريا طفلا ، فما أقبل زيطة إلى هذا العالم ، حتى وفر عليهما ثمن الاكتراء ، فكان فرحة عظيمة لهما ، كما كان خلاصاً للكثيرين فيما بعد . . .

وفى التراب نشأ زيطة ، وفى التراب عاش ، كانت أمه تتركه يزحف بحرية يرعى بين القاذورات والحشرات ، يتذوق الوحل ويختبر مواطئ الأقدام . . . كانت نفايات البقدونس وقشر الطماطم والهوام السابحة فى المياه الراكدة هى عالمه الجمالى المنقطع النظير ، وكان يحس فى التصاقه بالطين لذة يتصنع الآخرون الجزع منها ، والتقزز من مواجهتها . . . وقد هيأت له هذه القذارة فرصة الابتعاد عن الناس فيما بعد ، متفرغاً لتأملاته ومتفكراً فيما ألقى عليه من مهام ، فقد كانت رائحته الكريهة تنفيه عن

الناس ، وكانت قذارته تجنبيه فضولهم وتحديقهم فيه ، لا يصانعونه ولا يصانعهم ، وهم متحصنون بأنفسهم من أنفسهم بروائحهم العطرية وأناقتهم المصطنعة ، إذا فكروا فى الانتحار فكروا فيه بغير أن يجرؤوا عليه ، لا يدركون المعنى المخلص للعاهة ولا القيمة المطهرة للتشويه . . .

ولسنا نعرف كثيراً عن حياته أيام صباه فهذا الجزء من تاريخه غامض ومجهول أكثره لدينا ، وكل ما نعرفه مما بلغنا من أخبار أنه كان يعمل فى « سرك » متجول حيث تدرب على فن « الماكياج » ، وأصبحت له فيه يد صناع . . . وحيث يمكننا أن نستنتج أنه لا بد أن يكون قد تعرف بذلك على جوانب كثيرة وصناعات متعددة فى الحياة . وهكذا أعدته ولادته وطفولته وأيام صباه للصناعة التى ألقى على عاتقه أن يأخذ بها فيما بعد . . .

فى هذه الأثناء كان زعماء العالم يصنعون الحقد والكره فى القلوب ويصنعون القنابل والطائرات فى المصانع ، ثم مزجوا الجميع معاً وصنعوا منه حريقاً عالمياً كبيراً . . . وفى الشوارع الفخمة فى المدينة كانت صناعة التجميل قد انتشرت ، تصنع السمنة للنحاف والنحافة للسمان وتزيل الشعر وحب الشباب وتبرز الأرداف وتكور الأثداء ، وانتشرت الصالونات تسوى الأذن المنكمشة وتصغر المفرطحة ، وتعدل الأنف المنحنى وتدقق الشفتين الغليظتين ، وتعيد الصبا إلى « شمطاوات » الطبقة « الراقية » وفى الغرب كانت قد ظهرت مدارس تعبر عن المشوه وزعماؤها ينشرون الدعوة فيلبيها تلاميذ مخلصون يبرزون فى الجانب الميت قرف الإنسانية وفزعها . . .

ولقد حدث ذات صباح أن نشرت جميع الجرائد أخباراً عريضة

تلقتها بالبرق عن طفلين ولد أحدهما بالهند والآخر بأستراليا ، وكان الأول بلا ذراعين ولا قدمين وتوفى بعد دقائق من ولادته ، أما الآخر فعليه شعر ماعز وله ذيل قصير وقد ولد ميتاً . . . فما أقبل مساء ذلك اليوم حتى كان زيطة قد أشرف على زقاق المدق ، وقد أعد العدة لصناعته ، فحمل معه أدواته ومهماته ، واختار الخرابة القائمة أمام الفرن مكانه يمارس فيه عمله ، لا يفهم التشويه مجرد معنى جمالى فى الجامد أو الميت بل هو معنى نابض حى سيأتيه من أجله المجهولون والمخفقون متسللين من مشارق المدينة ومغاربها ، ثم يغادرونه رسلا وحواريين له فى مختلف الأحياء والزوايا . . .

وفى الطرق والميادين ، وفى الموالد والأعياد ، وقرب المساجد والكنائس وفى المقاهى والمقابر . . . كان المتصدقون والمحسنون يطالبون سائليهم بما يؤهلهم للشفقة والإحسان وكانوا ينظرون شذراً — كما ينظر أصحاب الشركات ومديرو المصانع إلى طالب لا مؤهل له — كلما وجدوا واحداً منهم صحيح الجسم معافى ، فى عينيه النور وفى لسانه الذلاقة ، وفى جسده الامتلاء . . . كانوا أشخاصاً عمليين ، لا يريدون أن ينفقوا أموالهم بلا عاهات تستدرهم ، ولا أن يبعثروها على غير مستحقيها ، كانوا يريدون عمياً وعرجاً وبلهاً كى يغدقوا عليهم مما يغدقونه على عشيقاتهم وهم يتطلبون العاهة فيهم تطلبهم الذلة والحاجة فى عشيقاتهم . . .

وهكذا أخذ يفد على زيطة أصدقاؤه الجدد وصنائعه فى المستقبل . . . إنهم منتشرون الآن فى كل مكان ، فى الأزقة والحارات ، وفى طرقات المدينة

الواسعة وميادينها ، معترفون له بالفضل والثناء ، وكل منهم يذكر جيداً هذه اللحظة من حياته التى أقبل فيها على زيطة وهو عاطل لا صناعة له ، يقوده فى جنح الليل صديق أو دليل ، فتداعبه الرائحة الرطبة التى يواجهه بها الزقاق ، ثم الأصوات والأضواء المتسربة من أعلى أحد المنازل حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة صاحب المقهى ، وفوهة الفرن متقدة كأنها شهوة أو مقت ، ثم الخرابة المعتمة الرهيبة كأنها كهف ساحر أو جنى ، والرائحة الكريهة المنبعثة من أرجاء المكان كأنها احتجاج أموات أو معذبين ، وضوء المصباح البترولى المرتعش يحيل الظلال إلى رموز ، والأدوات الموضوعة على الرف ما بين زجاجات وآلات وضمادات ، وزيطة مختف مع العتمة فى جلبابه الأسود القذر لا يدل عليه إلا عينان تبرقان ، وصوت ساخر طاغ ، ونار خافتة تنبعث من بقايا سيجارة ما بين يده وفمه . . .

كانوا يأتونه صحاحاً ، وكانت صحتهم تقف عثرة فى سبيل حياتهم كما تقف أخلاقيات شاب يافع ، كانوا يمدون أيديهم فيردها لهم الناس فارغة ، وكانوا يطالبون بحقهم فى الحياة فيأباها عليهم الآخرون ، فيقبلون على زيطة ثم يغادرونه ، عمياناً وكسحاناً وأحداباً وكسعاناً ومبتورى الأذرع أو الأرجل وبذلك يهبهم حقهم فى الحياة ، وما يبرر لهم اصطناع صناعتهم .

وهكذا كان الليل هو المجال الذى يتحرك فيه زيطة ، كان الليل هو مملكته التى يسيطر على ما فيها من حركات وهمسات ورغبات ، وكان صنع العاهة يربط صاحبها به كما تربط المعجزة المريض بمنقذه . . . فما ينتصف

الليل وتسرى المدأة فيه حتى يبدأ زيطة عمله ، فيجول فى حى الحسين العامر ماراً برعيته من الكتل البشرية المتكورة فى هذه الزاوية أو على ذلك الطوار كأنها بقايا هزيمة ، فيلتقى فى ميدان الحسين بكسيح إلى جانبه ما يشبه صندوقاً ذا عجلات أربع ، فيركله ثم يسأله عن حال كساحه ويستوى الرجل واقفاً على قدميه ثم يعطيه مليماً . . . يوميته . . . فإذا انعطف صوب الباب الأخضر التقى بأعمى ذى ذراع مبتورة تعود أن يبرزها للمارين كأنها بقايا شمع جمد فيوقظه ليأخذ منه المليم ، فإذا بلغ القبو القديم التقى بأعمى آخر قد انتشرت على صدره وفخذيه قروح تعود أن يعرضها على المارين كأنها تقيؤ دموى ، وهو يغط الآن فى نومه هادئاً مستريحاً ، فيركله ويسأله عن قروحه ، فيفتح « الأعمى » عينيه ويعطيه المليم ، وعند الجامع الكبير يلتقى بالأحدب الذى تعود أن يسب الناس ويشتمهم إذا ردوه خائباً كأنما لم يقنعهم الفرق بين حدبه واستواء قاماتهم ، وفى ذلك الوقت يكون أكثر تكوراً وأكثر سواداً وأكثر هدوءاً وقد انكفأ على وجهه وعقد يديه كأنما يصلى فما يحس بالخطوات المقتربة حتى يرفع يده بالمليم فيأخذه منه زيطة فى صمت ويمضى ، ثم يدور حول المسجد مارا بصنائعه واحداً بعد الآخر ، ثم يبتاع رغيفاً وتبغاً وجبناً أو حلاوة ، ثم يعود إلى خرابته حيث يستأنف دوراً آخر من أدوار عمله . . .

وكان شأنه — شأن كل صانع عظيم — يرضى حاجة خاصة فى الوقت الذى يرضى حاجة عامة . . . فهو يتعيش ويصنع لغيره سبل العيس . . . فلسنا نزعم أنه اختار هذا النوع من الصناعة إشفاقاً على الإنسانية وبراً

بها ، لقد كان يرضى باختياره ذاك حاجة دفينة إلى القسوة فى مجتمع قسا حتى لتذوق التراب . . . وكان يرضى كذلك حاجة فى الآخرين يفيدونها مما تضطرب به نفسه من رغبة . . . كان للرجل عذاباته ووحدته ووحشيته ، وكان سماعه تأوهات الرجل الذى يهرس له ذراعه أو يبتر له رجله يثير فيه لذة حيوانية هائلة . . . ولكن فلنذكر دائمًا – باعتراف وإجلال بالغين – أنه ما كان يضع لذته فوق المصلحة العامة . . .

فقد حدث فى أحد الأيام أن دخل مزبلته بعد رحلته الليلية ، فوجد عملاقًا قويًّا فى انتظاره ، وصفه زيطة بأنه « بغل بلا زيادة ولا نقصان » وكان الرجل يقول فى خور : « حظى أسود وعقلى وسخ » ، وأدرك زيطة أن صحة هذا « البغل » مثار للحنق وعقبة كأداء فى سبيل حياته ، ولكنه كظم شوقه إلى تهشيم رأسه وتقطيع لحمه ، واكتفى بأن يعلمه فن العته وإن لم ينقصه منه شىء – كما قال صانع العاهات – ويحفظه بعض مدائح الرسول . كما أدرك ذات مرة – وهو يبصق على الأرض ويمسح شفتيه بكم جلبابه الأسود أمام متسول مهيب الطلعة – أن العاهة قد تكون وقاراً به يستطيع الشخص أن يحصل على وجوده فى المجتمع ، كما تكون الذراع المقطوعة وملاحة البغى وشهادة الطالب ونفاق السياسى وكما تكون الألقاب والثروات . . .

وكان لزيطة أحلامه البهيمية مثلما لى ولكم . . . وكانت أحلامه تتركز حول حسنية الفرانة صاحبة الخرابة التى يستأجرها منها ، والتى كانت تصنع الخبز . . . وكانت حسنية مكتنزة ذات لحم كثير وبنيان عملاق ،

يتمنى زيطة لو تحتاج إليه يوماً كما يحتاج إليه الكثيرون . . . ولقد راودها عن نفسها أكثر من مرة – ورأسه تزدحم بأخيلة محمومة – فما كان يلقى منها إلا القسوة والزجر ، ولم تكن حسنية فى حاجة إلى صانع العاهات يشوه عليها حياتها الزوجية لأنه كان لها فى هذه الحياة ما يغنيها عن معونته ، فهى ما تنفك تضرب زوجها جعدة كلما حرق رغيفاً أو سرق آخر ، وهو يستلذ قسوتها وهى تستلذ بكاءه وصياحه ، فلا يلبثان أن يقتربا معاً فى عاطفة مشبوبة ، وشيئاً فشيئاً ، نحو لحظة من لحظات صفائهما الخالص . . . فلا عجب أن استغنيا عن زيطة كما استغنى عنه بقية سكان الزقاق لأنهما استطاعا أن يصنعا بأنفسهما ما يربط حياتهما معاً ، وما يضمن لهما اللذة والاستمرار ، فما لبث أن قنع صاحب العاهات بأن يراقبهما من خلال مزبلته وهما مستمران فى شجارهما المنتهى إلى صفاء وهو مسترسل فى الأحلام والعذابات . . .

ومن قبل كانت صناعة المطاحن البخارية قد نافست طواحين الهواء ، وكانت صناعة المذياع قد نافست الشاعر الذى يروى أخبار الزناتى والهلالى ، وكانت صناعة القنابل قد أخذت تنافس زيطة فى صناعته ، فقد كان إنتاجه فردياً وإن كانت فيه مهارة الفنان وهوايته ، أما تصنيع العاهات فكان على نطاق الجملة . . . ومع ذلك فلم يكن هذا معناه بالضبط الاستغناء الكامل عن خدمات زيطة ، لأن مصر لم تصب أولا كثيراً بمثل تلك الغارة التى شهدها زيطة ذات يوم ، ولأن حاجة مجتمعنا إلى صناعة التشويه هى حاجة ملحة وضرورية ، بعضها تشويه محطم كالذى تصنعه لنا الحرب والغارات ،

وبعضها تشويه خلاق كالذى يصنعه زيطة ، فالشحاذ يأتيه — على حد قوله — وهو لا يساوى مليماً ، فإذا غادره فقد ساوى ثقله ذهباً . . . لهذا كانت لديه عقيدة راسخة لا تتزلزل — كان يقوم عليها إيمانه بصناعته — ذلك أن الناس فى حاجة دائمة إليه ، فلا يعدم الليل أن يفرز له شخصاً من هذه الزاوية أو تلك . . . ومع ذلك فقد اضطر أخيراً أن يقوم بعمل إضافى ، حيث يذهب مع صديقه الملقب بالدكتور بوشى بين ليلة وأخرى لانتزاع بضع أسنان ذهبية أو فضية من جثة هذا المرحوم أو ذاك حتى قبض عليهما أخيراً ، وحوكم زيطة من أجل عمل لم يكرس له جهوده ، وكان مجرد مهمة عرضية فى حياته . . .

وكنا نحن منتشرين فى الموالد والأفراح أو جالسين نلهو فى المقاهى والحانات ، فإذا تدحرج علينا أعمى أو مفأفئ أو كسيح خالجتنا ريبة فى استمرار سلامتنا ، وساورنا قلق على اتصال طمأنينتنا . وكنا ندفع عنا تلك الريبة وذاك القلق بمليم أو قرش فى يد سائلنا . . . كان يشيع فى نفوسنا إدراك عام لمعنى الزمن المتقلب ، وللطمأنينة التى لا وجود لها ، ونحن أكسل من أن نحاول النفاذ إلى مواطن أصدقائنا وعشيقاتنا وشحاذينا ، وكان زيطة يدرك هذا الضعف فينا فيوفر علينا ما يطلبه ذلك من مجهود لا قبل لنا ببذله فكان يبرز لنا فى يد مبتورة أو رجل مشلولة أو عته أو بله آخر صورة من صور المأساة التى يمكن أن ننحدر إليها ، والتى نجد أسبابها ونحس أصولها فى أرواحنا ومجتمعنا . . .

ومنذ ألفين من السنين أقبل المسيح إلى العالم ، ومضى ذلك الإنسان الإلهى

يشفى المرضى والعمى والعرج فيهبهم بذلك حياة جديدة حتى سمى صانع المعجزات . . . ولما جاء القرن العشرون أقبل زيطة إلى هذا العالم يصنع المرضى والعمى والعرج ليهبهم بذلك حياة جديدة حتى لقد سمى صانع العاهات . . . وقد يحدث أن يأتى اليوم الذى تنتشر فيه صوره فى المعابد والمخادع ، وتباع تماثليه فى الحوانيت والموالد ، وتؤلف الكتب عن أعماله وحياته ، ولهذا تدركون تواضع ما نطالب به من صنع تمثال صغير يقام له الآن على رأس زقاق المدق . . . كما تدركون أهمية ذلك الطلب تبجيلا لما قام به واعترافـًا بفضله على كل من صنع له صناعة وتمييزاً له عن غيره ممن يشيعون التخريب المحطم والتشويه الذى لا طائل وراءه فتصنع لهم تماثيل عالية ومرتفعة . . .

كما أنصح كذلك بالاهتمام بأمر خرابته التى أمضى فيها حياته لعلها تصبح ذات يوم أثراً تقصده الوفود من كل أقطار الأرض . . . فلقد كان زيطة صانعـًا ، وكانت له صنعة وصنيعته منتشرون اليوم فى كل مكان فلا أقل من أن نرد إليه بعض صنيعه . . .

يونيو ١٩٤٩

مصرع «عبّاس الحلو»



مهداة أيضاً إلى الأستاذ نجيب محفوظ
صاحب زقاق المدق

حضرات القضاة ، حضرات المستشارين . .

لقد قرر المحقق الذى صرح بدفن جثة عباس الحلو أنه مات نتيجة اللكمات والركلات والزجاجات التى تطايرت عليه من الجنود الإنجليز بحانة النصر ، ولم يكن فى مقدور المحقق أنه يوجه التهمة إلى أحد ، أولا لكثرة الذين اشتركوا فى ضرب عباس الحلو وازدحام الحانة بهم ساعة وقوع الحادث ، وثانياً لأنه ما كان لأحد ينال من جنود الحليفة وهم فى نشوة انتصارهم بهذه الحرب العالمية الثانية . . وربما لو أتيحت للمحقق الفرصة كما تتاح له فى القضايا الأخرى لما استطاع أن يتعرف على متهم بالذات . . وهكذا ضاع الفتى هدراً كما صرح بذلك صديقه حسين كرشه ابن المعلم كرشه صاحب المقهى الواقع على رأس زقاق المدق . . .

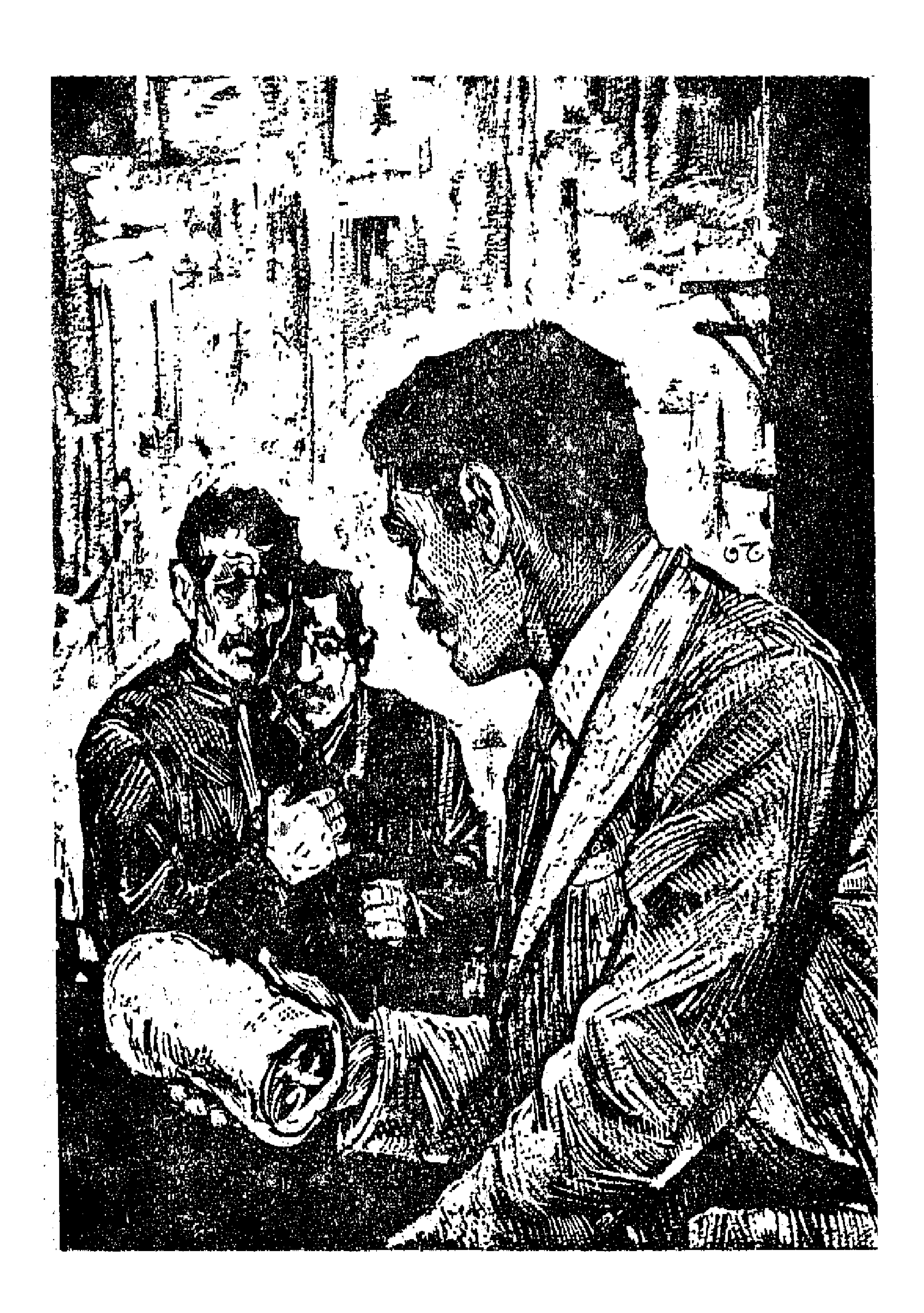
وبرغم عدم اختصاصى فى القانون ، إلا أننى رأيت أن أقحم نفسى وأقوم بتحقيق هذه القضية لحسابى الخاص ، فقد أولعت حديثاً بمثل هذه القضايا ، وربما كان عدم اختصاصى القانونى يبيح لى حرية التفكير والاتهام مما لا يتاح للمحقق المحترف .

لقد جاء فى تقرير المحقق أن عباساً الحلو لم يقتل مع التعمد أو سبق

الإصرار ، وأن الطبيب الشرعى قد فحص الجثة فلم يتعرف إلا على شج فى الرأس وجرح كبير فى العنق نتجا عن استعمال زجاجات متكسرة، ثم كدم فى الجانب الأيسر وآخر فى أسفل العمود الفقرى، وقرر أن سبب الوفاة كثرة ما نزف منه من دماء ،وقد حدثت إثر هبوط شديد فى القلب ، أما القاتل فقد نعته التقرير بكلمة « مجهول » .

لهذا رأينا أن نهمل هذا التقرير الرسمى ونبحث عن آثار أخرى عسى أن نستدل منها على السبب الذى أدى إلى مصرعه ، ونحن نعلم أن مهمتنا شاقة وقد نتهم أبرياء وقد نغفل آخرين . ومع ذلك فقد آثرنا المخاطرة لما بين أيدينا من أدلة قد يتهمنا الكثيرون بأننا أسأنا استعمالها وبالغنا فى تأويلها إلا أنها على أية حال تلقى ضوءاً على المأساة خيراً مما يلقيه هذا التقرير .

ولا شك أنكم ستعلمون مقدار الصعوبة التى واجهتنا حين تدركون أن عدد المتهمين قد كان من الكثرة بحيث امتد فشمل — على سبيل الاحتياط — العصر بأسره . . ولقد وجدنا أن خير وسيلة نضمن بها عثورنا على المتهم هى أن نوجه الاتهام إلى العصر كله ، وهذا ليس من اختراعنا ولا هو شطط منا ، فأنتم تعلمون أنه عندما تقع جريمة — فى حفلة مثلا — فأول ما يفعله رجل البوليس هو أن يوجه التهمة إلى الجميع وليس إلى أحد . . وبهذا المعنى شمل اتهامنا هؤلاء الجنود الذين أصابوه بالزجاجات إصابات قاتلة فى رأسه وعنقه ، وهؤلاء الذين اشتركوا فى صنع هذه الزجاجات ، وهؤلاء اللواتى ولدن أولئك الجنود ،



وشمل اتهامنا هؤلاء الأقربين الذين كانوا يعرفونه ويرافقونه ، حتى هؤلاء الزعماء العالميين الذين قادوا الحرب ووضعوا الجنود فى الحانة ليلة الحادث . إنه يبدو أيها السادة أن مصرع عباس الحلو وهو شاب فى الثالثة والعشرين وكان يعمل حلاقاً فى زقاق المدق بمدينة القاهرة ، إن هو إلا جريمة اقترفها عصر . .

وأنتم تضحكون بلاشك من جدوى هذا الاتهام ، فهو يتناول لفظاً مجرداً ، ولا يتعلق بأفراد معينين نستطيع أن نبصرهم ونلمسهم ونكرههم وأن تقتص منهم « العدالة » التى تحرصون عليها دائماً . . ولكنكم تدركون كذلك أن كثيرين غير عباس الحلو قد ماتوا أيضاً بسبب العصر ، قتلتهم روح الحرب التى ازدحم بها العصر ، بعضهم غرق فى البحر وأكلتهم الأسماك ، وبعضهم صعقتهم الغارات ودفنتهم تحت الأنقاض ، وبعضهم قتل وجهاً لوجه أمام أخيه الإنسان ، بعضهم جن وبعضهم تشوه وبعضهم ترمل أو تثكل أو تيتم ، وبعضهم مات مثل عباس الحلو بسبب حادث غرامى فى حانة من حانات اللهو وفى بلد لم يذق من أهوال الحرب ما ذاقته بلاد أخرى ، وفى كل حالة من هذه الحالات كان القتلة مجهولين ، وكانت العدالة التى تحرصون عليها أيها السادة تقف دائماً « معصوبة العينين » . ومع ذلك فسنتمشى طبقاً لتقاليدكم ونوجه الاتهام أولا إلى أشخاص معينين ، ولكنكم ستدركون معنا فى النهاية ويسبب توزع المسئولية على الكثيرين جداً أنه اتهام قليل الجدوى .

ولما كان يتضح فى معظم القصص البوليسية أن المتهم هو الذى كان أبعد الناس عن الشبهات أول الأمر ، كأن يكون صديقاً أو حبيباً ، فإننا استفدنا من هذه الخبرة السابقة ووجهنا الاتهام مباشرة إلى فتاته حميدة وصديقه حسين كرشه . . ولقد صدقت فراستنا ووفرت علينا كثيراً من المشاق التى كنا معرضين لها . . فقد ثبت لدينا أنه ما كان لعباس الحلو أن يغادر صالونه بالزقاق يوماً لولا وجود هذين الشخصين فى حياته . . كان يود لو ظل فى زقاقه هادئاً قانعاً بهذه الغيبوبة الحالمة التى يحيا فيها الزقاق ، فهو زقاق صغير معتم مقفل ، ومنزو وفى حى من أحياء المدينة العظيمة الصاخبة ، تنبعث فى أرجائه رائحة خدرة مهلكة ، ويرى دائماً على رأسه عم كامل بائع البسبوسة بعذبته القصيرة وجسده المترهل السمين . . لا يفيق إلا لحظات فى الصباح عندما يقبل تلاميذ المدرسة الأولية يدسون فى كفه البضة الملاليم ثم يعود إلى إغفاءته المستديمة ، وأمامه المعلم كرشه صاحب المقهى يتناول « فصاً » كل بضع ساعات ليتصل له ذهوله الحالم المستديم . .

لقد كانت حياة الحلو بطيئة متكررة ، لا يمل اتصالها الرتيب ولا يتطلع إلى تعديلها أو تحويرها . . كان عالمه لا ينفسح خلف الزقاق ولا رجاء لديه إلا فى حياة هادئة فى حدود دخله المتواضع فى ظلال حميدة وفى ظلال عيونها وأنفاسها . . وكان راضياً قانعاً ، محتملا لو تقسو عليه الأيام يوماً ، منشرحاً لو منحته لحظة من هناءتها ، لا يعشق إلا رائحة الزقاق وترابه ، ويقلقه أن يجد نفسه فى شوارع ماتنفك

تتسع وما تنفك تصطخب وما تنفك تزدحم . . ومع ذلك فقد كان يبدو أن هناك جانباً من حياته يتمرد فى خفاء على هذه الدعة وهذه الطمأنينة اللتين لا يطمح الحلو إلى سواهما ، جانباً مجنوناً يرجوه ويخشاه، تعبر عنه صداقته لحسين كرشه وتمسكه بهذه الصداقة . . كان هذا الصديق يقلقه حيناً ما ، ويشيع فى نفسه لوناً من الريبة فى قيمة حياته هذه التى يحياها ، وفى المعنى الحقيقى لقيمه التى يتمسك بها والتى تستمد دعائمها من رائحة الزقاق وعتمته ، كان كلما وقعت عيناه على حسين أحس أنه إزاء جزء من هذه الطرق الفسيحة المزدحمة حيث قيمه تنهار وشخصيته تضؤل وتضؤل وسط الزحمة المصطخبة . . كان صديقه يفتح عينيه على عالم آخر مزدحم بالمطامع والمطامح وصاخب بالتشاجر والتنافس فى سبيل الظفر بالقوة والمال .

وفى هذه الزحمة الوهاجة المضيئة فقد فتاته حميدة . . ظل صديقه يلح عليه كى يرحل ، أن يترك هذه الغيبوبة الحالمة وينطلق ليشارك فى السباق المرهق العام . . وظل يزعق فيه : سافر سافر سافر» ماذا أكلت ، ماذا شربت ، ماذا لبست ، ماذا رأيت» وما كان لزعقاته أن تقلقه إلا قليلا ثم سرعان ما تخبو ، لولا أن حميدة كانت هناك ، وكان هو يحبها ، وكان فى حبه لها شىء غريب عن طبيعته ، كان صوتها الأجش ما ينفك يعلو بين حين وآخر فيخرج بالزقاق عن طبيعته ، وكانت ما تنفك تتشاجر مع الرجال ومع النساء ومع أمها فتزلزل الزقاق وتوقظه من سباته المستديم بضع لحظات ، وكان الحلو يحبها ويرجو أن

تشاركه حياته ، ولكنه ما كان يدرك فداحة الثمن الذى وجب عليه أن يدفعه ، حقاً لقد أدرك أنه سيدفع ثم يعود ويستأنف حياة الدعة والهدوء . كانت هناك صداقة غريبة ولكنها طاغية ، وكان هناك حب قوى لكنه طموح ، فرضى أن يحمل نفسه ما يكره ، وأن يغترب عن طبيعته قليلا . لكنه ما إن سافر حتى وجدت حميدة أن مشاريعه تضمحل ، وأصبح حب الحلو لها فكرة لا حقيقة لها ، مجرد أمل باهت لا تستطيع هى أن تقبض عليه وتعتصره بين يديها ، وأصبح طموحها معلقاً بمصير ذى غياهب مجهولة ، مما أعطاها القدرة على أن تغادر الزقاق ملبية أول نداء رأت أنه يحقق لها طموحها فى سرعة وقوة ووضوح . وهكذا شارك حسين وشاركت حميدة فى حياكة هذه المؤامرة التى انتهت بمصرع عباس الحلو ، الواحد بصداقته الطموح والأخرى بما أثارته فيه من حب خلاق .

وقبل ذلك ، ومنذ ست سنوات كان هتلر قد أعلن الحرب على إنجلترا ثم على الروسيا وبذلك كان مصير الملايين من البشر قد تقرر فيما تسمونه . . « القدر » كان قد تقرر أن يموت هذا غريقاً وأن تتشكل هذه وتترمل تلك . وأن تصبح حميدة عاهرة ويموت خطيبها عباس الحلو مقتولا وهو لما يزل فى الثالثة والعشرين ، فصراع العصر لم يعد يقتصر على هؤلاء الذين يريدونه ويعلنونه ويشاركون فيه ، بل هو يمتد إلى الآخرين الذين لا يدلون برأى فى المعركة ويحاولون عبثاً أن يتجنبوا لفح الصراع ، وهكذا يشارك كل بما يملك أو يستطيع ، فشاركت حميدة

بجسدها وشارك عباس الحلو بمصيره .

والواقع أن عباس الحلو كان يدرك هذا المعنى من قبل إدراكاً واضحاً — برغم أنه لم يفلسفه — كلما انطلقت صفارات الإنذار وسمع أزيز الطائرات وقصف المدافع فوق رأسه . . كان يحس أن الحدث العام قد وصل الآن إلى مخدعه ، وقطع عليه هدأته وراحته ، وعطل له آماله وهواجسه كي يشارك هو والآخرون بعضهم بعضاً فى ترقبهم وانتظارهم وفى خوفهم وإنصاتهم . . هكذا أدراك أن الحدث العام جزء جوهرى من حياته الخاصة ، وأن الجميع يشاركون فى هذا النذير المنتشر فوق رءوسهم وقد مد أطرافه الممسوخة الجزعة إلى قلوبهم وخواطرهم ، وكان أحياناً ما يخشى أن يضطر إلى المشاركة فى هذا الصراع بذراع له أو ساق ، لكنه ما كان يحسب أبداً أنه سيشارك فيه بحبه وسعادته أولا ، ثم بمصيره كله فى النهاية بعد أن تكون الحرب قد انتهت فصمتت المدافع فى الميادين واطمأنت القلوب فى الأوطان .

وهنا نستطيع أن نضيف إلى قائمة الاتهام شخصاً لم يشارك فى المأساة بصداقته أو حبه أو قيادته صراعاً عالميًّا ،بل بمجرد سعيه إلى مصلحته الخاصة ، وربما يفرضه عليه عمله . . لم يعرف الحلو يوماً ولم يعرفه الحلو إلا شبحاً مقيتاً نغص عليه حياته وعقدها وأشاع الفوضى فيما استقر عليه من رأى ، ولم يحدث أن تقابلا أبداً ، ومع ذلك فقد كان لفرج إبراهيم أهميته الكبرى فى المؤامرة ، وكان عمله أن يهيئ الفتيات أمثال حميدة لمصاحبة جنود الحلفاء ، فما إن سافر الحلو إلى التل

الكبير ليعمل في جيوش الحليفة — كي يعود ويفتح صالوناً بالموسكي تحقيقاً لأطماع حميدة وتسليماً لصرخات صديقه — حتى تغير كل شيء .

في هذه الأثناء كان هناك جنديان إنجليزيان يعودان من ميدان القتال . . ومنذ ست سنوات أقبلا على باخرة إلى مصر . . وكان يدركان أنهما سيحاربان في الميدان وقد يقتلان وقد يقتلان ، وادعى أحدهما وهو مخمور أمام أصدقائه ذات مرة — ومنذ زمن بعيد — أنه قد جاء في مهمة سرية في الشرق الأوسط ، فضحك السامعون إذ ذاك وضجوا ، ولكن لم يخطر بخاطر أحدهما أنه سيشارك يوماً في مصرع الحلو في حانة من حانات القاهرة ، وكانا الآن عائدين إلى القاهرة من ميدان القتال وقد قتلا عدداً من الألمان والطليان وظنا أنه بقي عليهما الانتظار حتى يعودا إلى وطنهما ، ولكن ثمة مهمة واحدة بسيطة كان عليهما أن يؤدياها في الشرق الأوسط في يوم قريب ثم يرحلا عنه في اليوم التالي إلى الأبد .

أما فرج إبراهيم فقد كان بالنسبة لحميدة في أول الأمر مجرد « عينين » عينين متفرستين وسط زحمة من الناس في حفل انتخابي أقيم أمام الزقاق ، كان مجرد عينين تدعوان حميدة وتثيران ما تهيأ في جسدها من رغبة وطموح وميل إلى المغامرة والانطلاق . . ولقد لبت حميدة ذاك النداء ، وفي الضوء الوهاج الذي بهر به فرج إبراهيم عينيها بدا لها الحلو قزماً ضئيلا والحياة معه سخرية كبيرة ؛ وبدا لها

فرج إبراهيم شخصاً بيديه مفاتيح عالم متسع كبير يحقق لها ما تبتغيه من تميز وتفرد على بقية صديقاتها اللواتى لا يحلمن جميعهن إلا بمصير واحد متكرر حيث يلف النسيان والعدم ظلالهما عليهن وهن يخدمن أزواجهن ويرضعن أطفالهن ويسمعن بقية العمر شتائم أولئك وهؤلاء . كان الرجل يسعى فى سبيل عمله وكان الحلو مجرد اعتراض صغير مجهول فى هذا السبيل شد ما سهلت إزالته بلا تهيب ولا تردد . وهكذا اختفت حميدة من الزقاق ، وكانت تحسب أن فرج إبراهيم يهيم بها ، وكانت هذه هى وسيلته فى اجتذاب هذا اللون من النساء ، فلما أدركت الحقيقة ، لم تكره حياتها الجديدة ، ولكنها كرهت هذه الخدعة فأضمرت فى قلبها السوء والانتقام .

وفى باريس ، ومنذ عشر سنوات ، كان ثمة عمال يصنعون الزجاجات الفارغة ، وفى ليون ، ومنذ تسع سنوات ، كان ثمة آخرون يملأون بالنبيذ هذه الزجاجات . . ورحلت هذه الزجاجات وصدر بعضها للغرب وصدر بعضها للشرق ، وتدحرجت بضع زجاجات من يد تاجر إلى يد آخر وعددها يقل ويقل حتى استقر بعضها فى شارع من شوارع القاهرة . . وقبيل مصرع الحلو بيومين كانت إحدى هذه الزجاجات قد استقرت على رف من رفوف حانة النصر وفى متناول أحد الجنود .

ولقد عاد الحلو من التل الكبير فوجد كل شىء معداً لمصرعه ، ولقد عثرنا على محاولات قامت لإحباط هذه المؤامرة ، وأهمها تلك المحاولة

التى قامت فى اللحظة الأخيرة ، ولكنها كانت محاولة فردية لم يكن لها تأثير كبير على جرى الأحداث . . فى زقاق المدق ، وفى ليلة الحادث ، كان السيد رضوان الحسينى ينوى أن يقوم بالحج ، سمعه الحلو وهو ينصح الحاضرين قبل سفره بالشجاعة والصبر وألا يضعفوا أمام اليأس والغضب ، لكن هذا الصوت الهادئ قد ضاع وسط الضجيج الهائل الذى كانت نفس الحلو تصطخب خلاله فى تلك الليلة ، حقاً لقد تردد قليلا ، لكنه ما كان يمكنه أن يعود إلى طبيعته الأولى .

ولقد عثرنا مع القتيل ليلة الحادث على علبة بها عقد ذهبى مركب من سلسلة وقلب رقيق ودلت تحرياتنا على أن الحلو قد باور فى هذا العقد عواطفه وجسد آماله وارتبط به ارتباطاً أكثر واقعية فى حركته نحو حميدة . . وعلمنا أيضاً أنه حين قابلها فيما بعد ووجدها تزين رأسها بهلال ماسى وتزين أذنيها بقرط لؤلؤى أحس الحقارة والاحتقار وهو يتأمل أمامها عقده فى ذهول حتى لكأنما بريقه الذهبى الذى كان ينعكس على وجهه يشيع فيه قلقاً صاخباً عربيداً . وبهذا كان وجود الهلال والقرط عليها ووجود العقد الذهبى فى جيبه حتى ليلة مصرعه عاملا قوياً قد استطاع أن يغذى فيه بحق قوى الكراهية والغضب ، واستطعنا بتحرياتنا أن نتعرف على الصائغ الذى قام للحلو بصنع ذلك العقد ، وهو غير الصائغ الذى باع لحميدة الهلال والقرط ولو أنهما يسكنان فى حى واحد ، ودكان كل منهما يكاد يواجه دكان الآخر .

كان قد لقى حميدة وأشعلت فيه نار النقمة من الرجل الذى سلبه سعادته : وتواعدت معه على أن يلقاه يوم الأحد ليقتص منه . . ومع ذلك فإن الحدث لم يقع يوم الأحد أبداً ، فقد كان لقاء الأحد مدبراً ويعرفه إنسانان هما حميدة والحلو ، أما مصرعه فقد ذهب الجميع ليشاركوا فيه من غير أن يدبره أو يعلم به أحد . . وهكذا تمت الأمور بأسرع مما دبرها الفتى والفتاة . . فعندما هبط الليل الذى شهد هذا الحدث الكئيب ، وقبل يوم الأحد بأيام كان الحلو يسير مع صديقه حسين ليعرفه بطريق الحانة التى سيلقى بها غريمه فى الميعاد المضروب ، ولكن كل شخص كان قد أعد الآن دوره : صديق ملحاح ، وفتاة منحته أملا أهاب به الخروج عن طبيعته ثم تركته يتمزق فى الطريق إليها ، وثالث يسعى فى سبيل عمله للحصول على قوته ، وصائغ صنع عقدا ذهبيًّا ، وزعماء قادوا الحرب ويستريحون الآن قليلا ، والمساء والحانة والذين صنعوا الزجاجة والذين عبؤوها والذين تاجروا عبر البحار والخادم الذى يضعها فوق الرف والجنديان الراحلان غداً أحدهما يسقيها من كأس فى يده والآخر يضع ساقيها على حجره وآخرون حفوا بهم وهم يشربون ويعربدون . .

فى هذه اللحظة حصل عباس الحلو على قمة تحرره ، وزايله فجأة تهيبه وتردده ، وأحس أنه يقوم الآن بمغامرة حياته ، وهى مغامرة لا يعرف لأول مرة نتائجها ولا يحسب فيها خطواته . . ومن قبل كان قد غادر الزقاق على أن يعود ، أما الآن فقد كان يغادر الزقاق فقط ،

لايهمه أن يعود ، أو يذهب إلى الأبد . . كان يحس أن هناك تحولا حاسماً وملموساً يحدث الآن فى حياته كلها ، فاندفع يضرب حميدة بزجاجة من زجاجات الجعة الفارغة، ورأى الدم ينزف منها ويغمر وجهها حتى يحجبه عنه . .وبهت الآخرون لحظة ، لكنهم سرعان ما رفضوا أن يأذنوا له بأن يعترض بجريته الجديدة طرق حياتهم ولهوهم ، حتى صديقه حسين كرشه الذى طالما غذى فيه جانب التمرد والجنون قد وقف الآن ذاهلا خارج الحانة ، وهو يحس بأن كل نصائحه وكل مغامراته لتضؤل الآن أمام هذه اللحظة التى حصل عليها الحلو فى حياته ، ولقد حصل عليها فى الوقت الذى كان يتلقى اللكمات والركلات فتحرر وأشاع معه فى الحانة حرية لا يحصل عليها السكارى بخمرهم بل هى تحتاج إلى صحو شديد ، فأيقظهم ليحررهم معه لحظة ثم دفع الثمن . . وسرعان ما كان فى خدمة اللحظة حشد من القوانين بعضها رياضى يتعلق بحركة الأجسام وثقلها ومقاومتها للضغط ، وبعضها كيمائى مثل التأكسد فى الرئتين ، وبعضها فسيولوجى مثل محاولات الدم للتخثر ونقص الكرات البيضاء والحمراء وهبوط القلب ، وبعضها إنسانى عاطفى . كانت هناك شهوات ظمأى وكانت هنالك عاطفة جريحة وسفن فى البحر وقبلات فى المخادع ونظرات عابرة فى الطريق وأشخاص يحجون وأشخاص يتمردون وحب ومقت وقوانين وزمن وأزمنة . . وفى لمح البصر أدى كل مهمته ، وتصادمت العواطف والأهواء كما تتصادم الشهب فى سماء ليل حالك فيندلع حريق كبير لحظة ثم يخبو . . وأنا وأنتم أيها القضاة

والسامعون موجودون نشارك فى حشد المهازل والمآسى ، بعلمنا أو جهلنا ، بحركة أو كلمة أو نظرة ، ونحن نسعى فى سبيل عواطفنا وأعمالنا ، فيطرب شخص ويمرض آخر ويصرع ثالث ، وقفص الاتهام خال لا أحد فيه .

كنا جميعاً موجودين ليلة ذلك الحادث ، ونحن نتحرك حركاتنا فيقوم على أكتافنا تاريخ الإنسان ولم نفعل شيئاً فى سبيله ، وحرمناه حقه فى التحرر لئلا يحررنا معه ، واحتمينا بجهلنا وفضائلنا السابقة والمقبلة فتركناه ، ونحن نتفس معه عصراً واحداً ، ونتناول معاً خبزاً ربما صنع فى مخبز واحد أو من قمح حقل واحد . . كان كل منا يعبر طريقه فى الحياة ، تختلف مدى أطماعنا ومدى قدراتنا ، وكان طريق عباس الحلو قد تعرج بين هذه الطرق حتى ضاق عليه الخناق ، شيئاً فشيئاً . . وقتلته اللكمات والركلات والزجاجات ، وفحص الطبيب الجثة وكتب المحقق التقرير ، وخط أمام القاتل بخط واضح ظاهر كلمة : « مجهول » .

ديسمبر ١٩٤٨

سياحة البطل



مؤمن عبد السلام عيد ، استطاع أن يحصل على وظيفة كاتب بمصنع للدخان بمرتب شهرى قدره أربعة عشر جنيها ، كما خطب إلى نفسه أخيراً فتاة استطاع إقناعها بأن تشاركه حياته ، واسمها — على سبيل المعرفة — عنايات . لكنه ما لبث أن قال : وما فائدة الوظيفة وما فائدة الخطيبة إذا لم يكن لى بيت ؟ . .

لهذا فى صباح كل يوم من أيام الجمعة ، يوم عطلته الأسبوعية ، يقوم كأنه ذاهب إلى عمله اليومى ، يقوم كأنه يؤدى واجبه الدينى ، يقوم كأن أمامه رحلة طويلة شاقة . .

ونظر إلى الرجل الذى شاركه غرفته هذه الليلة . كان شخيره لا يزال يعلو وينخفض ، ورائحة الريف تنبعث من ثيابه ، وصياح الدجاج ورائحته تنتشر فى المكان . فنى مساء الأمس أقبل هذا الرجل يحمل أقفاصاً من الدجاج ، حين كان النعاس قد أخذ يتسلل إلى عينيه ، وحين كان المكان قد هدأ إلا من صوت الأرانب التى يربيها صاحب الفندق وهى تقفز فى الظلمة وتحت السرير من حين لآخر . . ثم جمعتهما الغربة والوحشة والظلمة المغرية الخبيثة ، فمضى يدلى باعتراف كامل عن تاريخ حياته ، وكيف تدرج حتى أصبح اليوم تاجراً للدجاج ، وها هو ذا قد أقبل بهذه الأقفاص جميعها يرجو أن يبيعها فى سوق المدينة صباح اليوم .

وأمام باب الفندق كانت هناك نصف دائرة تنحنى نحوه ، تتكون من زجاجات الكازوزة المقلوبة ، قد دفنت منها رءوسها فى التراب وبقيت بقية أجسادها متساندة منحشرة بعضها إلى بعض على هيئة نصف دائرة تنحنى نحو طرفى الباب .

وكان صاحب الفندق يقصد بذلك — فيما يظن — إلى زركشة المدخل العام وجذب أنظار العابرين . وكان هذا هو — على ما نعلم — جهده الوحيد الذى بذله للإعلان عن فندقه العظيم .

وعبر نهاية الحارة ، وفكر لحظة أن يقف عند مطعمه المفضل ليتناول شيئاً يستعين به على رحلته الطويلة المقبلة خلال أزقة المدينة وشوارعها ، لكن لم تكن له شهية على الإطلاق . وكان المطر قد هطل غزيراً فى تلك الليلة وتبقت منه الآن برك وأوحال مضى أطفال الحارة يتسابقون فى خوضها فتفاداهم وهو يواصل سيره . . فقد كان يعرف اليوم إلى أين يتجه ولو فى الساعات الأولى من النهار ، كان عليه أن يمر بمنزل صديقه صلاح ليدله على مسكن متواضع عساه يروقه وتروقه عروض صاحبه . وكان مطلبه — كما يبدو من إخفاقه المتتالى — عسيراً للغاية ، فهو لا يريد سوى مسكن متواضع بأجر متواضع ، مسكن به يؤدى غرائزه الأولى : غرفة نوم وأخرى للاستقبال ومطبخ للطعام ومرحاض ، وكان هذا — فيما يبدو — عسيراً للغاية .

فما إن وصل إلى منزل صاحبه وعلا الدرج المعتم المتكسر ، حتى طرق الباب طرقاً خافتاً متوالياً ، فقد كان يبدو وكأنما النعاس لا يزال

يملأ جنبات البيت ، وحين أعاد الطرق من جديد ، أعلى صوتاً وأكثر جرأة ، ترامى إلى سمعه وقع أقدام مقبلة . فلما فتح الباب وجد نفسه أمام الزوجة الشابة وهى لما تزل فى قميصها الليلى ، وكتفاها تبدوان مستديرتين ناعمتين . ولما لمحته تراجعت إلى الوراء قليلا ، وصاحت معتذرة : لاتؤاخذنى ، ظننتك بائع اللبن . ثم أذنت له فى الدخول .

ولقد رأى صديقه جالساً فى الردهة يتناول إفطاره . وبدا له أنه شخص متطفل يزعج الناس فى بيوتهم فى مثل هذا الوقت المبكر وفى يوم راحتهم الأسبوعية ، لكن ما كان له أن يتردد ، فاندفع وصاحبه يصيح به : تفضل يا مؤمن ، فأنت لم تأكل بعد بلا شك . وأحس أن شهيته تتفتح الآن حقاً ، ولكنه ادعى أنه أفطر ، وتمتم متشكراً ، وهرول متجهاً نحو غرفة الاستقبال ، ولكن صديقه صاح من جديد يريده أن يجلس معه ويشاركه الحديث . وهكذا جلس أمامه ، وهو يود لو لو ينتهى من طعامه سريعاً ، فوجوده فى مثل هذا الوقت قد قيد حركات الزوجة قليلا بلا شك ، ولعله أزعجها حين رآها وهى لما تنفض عنها النعاس ، وهناك البيت الذى يود لو يحصل عليه سريعاً . ولكن إلحاح صديقك يامؤمن وهدوءه وعدم اكتراثه لما بدا عليك من خجل ، لم يدع لك مجالا للاعتراض ولا لإبداء شىء مما يعتريك .

— هل لك يا مؤمن فى سيجارة ، ما أخبار عملك يا مؤمن ، هل لك يا مؤمن فى قدح من الشاى ؟ . . وكانت الشمس تنفذ من خلال النافذة ، وصلاح يتناول القدح ويقدمه لى ثم يقذف بعلبة سجائره .

وكان على أن أرضيه فأطيع ، فأنا اليوم فى حاجة حقيقية إليه ، وهو وحده الذى يمكن أن يكون واسطة بينى وبين صاحب البيت الذى نقصده . وحدثنى عن عملى ، وحدثته عن طفله ، وشرب قدحه من الشاى وشربت قدحى من الشاى ، وتناول قدحاً آخر ودخنت سيجارة أخرى ، وقام يتحرك وشعاع الشمس يزداد اقتراباً منى ، وهو يغسل وجهه ، وهو يختفى عنى ، وأنا وحدى فى الردهة ، وزوجه تعبر أمام وجهى ، وأنا أشتهى النساء وأشتهى حبيبتى ، عارية بضة ، وغرفة النوم وغرفة الاستقبال ، والمطبخ والمرحاض ، وصديقى قد ارتدى بدلته ، وأنا أود لو أستعجله ، وهو يختفى عنى قليلا ليداعب طفله ويودع زوجه ، وأنا فى حاجة حقيقية إليه ، حتى جرؤت أخيراً أن أصيح فيه قائلا :

ــ لقد آن لنا أن نخرج !

ــ وفيم العجلة يا صديقى وأمامنا نهار كامل ؟

ــ ولكنى لا أريد أن تضيع منا عبثاً دقيقة من دقائق هذا النهار .

ــ لا تخف ، لا تخف ، فإن زوجى تعد لنا القهوة ، فإذا شربناها خرجنا توًّا . . .

ــ لكننا شربنا الشاى ؟

ــ ما رأيك فى سيجارة أخرى ؟

فلما تناولا القهوة ، خرجا إلى الطريق ، فإلى طريق آخر فثالث . طريق بعد طريق . طرق بعضها موحل . وكان عليهما أن يخوضا ، وكان

عليهما أن ينفضا الوحل وأن يستنشقا الوحل ، ومؤمن يتكئ على ذراع صديقه بين حين وآخر ، يتأمل رأسه أحياناً وعينيه أحياناً .

كانت بينهما صداقة طويلة عنيفة ، فهو يكرهه وهو يحبه ، وكانا يحسان فى هذه اللحظة أنهما قد استنفدا كل شىء بينهما : تحدثا فى كل موضوع ، وعاشا كل انفعال ، وما يزال كل منهما فى حاجة إلى الآخر . وسارا صامتين ، يعبران بقايا الوحل ، ويتفاديان دوائر الماء الضحلة ، ومؤمن يبحث عن معنى يتألق فى نفسه أو خبر يثير من اهتمامهما أو أمل يصنعانه معاً ، فقد كان صمتهما الآن محرجاً للغاية ، كأنما فيه حكم على ما يشوب علاقتهما من شيخوخة تحتاج إلى التجديد . وكان مشروعهما الذى يهدفان إليه الآن قد أدخل شيئاً من الجدة على علاقتهما ، وأحيا الرابطة التى بينهما . ولحه مؤمن يتفرس فيه كأنما ليؤنبه على صمته ، وأدرك أن صديقه ينوى ويمهد للحديث ، وكان يود لو يحادثه ، فعاونه على محاولته بأن تهيأ بوجهه لما عساه أن يقول ، وقد صدق توقعه حين رآه يهمس :

— فيم تفكر ؟

— لا شىء . .

— بل تفكر فى شىء . .

أفكر فى شىء ، بل أنا أفكر فى أشياء كثيرة ، غير مجرد العلاقة التى بيننا ، وأنا أعلم أنه يصر أن أحدثه ، وكان على — وأنا أعبر بقايا الوحل — أن أختار له موضوعاً ما ، فأجبته :

— فى البيت الذى نحن ذاهبون لرؤيته . .

— بل تفكر فى شىء آخر .

— بل هذا ما كنت أفكر فيه .

— بل فى شىء آخر . .

وهكذا حدث ما كان يخشاه ، فها هو ذا يحاول أن ينتزع شيئاً منه ، شيئاً من أعمق أعماقه ، يخفيه هو عن نفسه ، شيئاً غامضاً لا يعرفه وربما لا يريد أن يعرفه ، وهو يعد موضوع المسكن تافهاً لا يرضيه ، وعليه أن يختار له موضوعاً يقنعه أنه محور تفكيره . وكان قد قرر ألا يذكر له كثيراً عما بينه وبين خطيبته عنايات . فيكفيه أن يعرف أمر العلاقة العامة ، أما التفاصيل فهى شىء خاص به ، وكان يعلم أنه كثيراً ما أغراه بالحديث عنها ، ولكن فى كل مرة يعود من عنده وهو يحس أنه قد امتلكه فلم يعد له سر خاص ، وقد سلبه بطريقة تهلكه تماماً . فلما لاحظ صمته همس فى رقة : وكيف حال عناياتك ؟

وابتسم مؤمن وتملكه إغراء أن يحدثه عنها طويلا طويلا ، لكنه كان يقاوم وهو يواصل هجومه :

— هل قابلتها بالأمس ؟

— نعم ، هى على خير حال وتبلغك تحياتها . .

نعم هى تبلغك تحياتها ، وهو خبر ليس مختلقاً ، إلا أننى ما ذكرته لك يا صلاح إلا عساه أن يرضى غرورك ، راجياً أن تعدل عن مواصلة الحديث فى هذا الموضوع ، لكن هذه الوسائل ما كانت لتجدى معك ، فعلى إذن أن أندفع فى الحديث ، وأن أذيع آخر الأخبار ، التى كنت

قد قررت — كما قررت فى مرات كثيرة سابقة — أن تظل ملكى أنا وحدى .

* * *

وفى النهاية وصلا إلى زقاق ، والزقاق ينتهى ببناء ، والبناء ضخم جديد لا يتفق والزقاق . وحين رأى مؤمن صديقه يتجه نحوه ، لم يصدق ذلك أول الأمر ، ثم قال لعله ذاهب يستفسر عن شىء . فلما أصبحا وجهاً لوجه أمام بوابه النوبى الضخم ، أحس شيئاً من الإشفاق والتهيب وهمس فى أذن صاحبه :

— هل المسكن الذى نبحث عنه موجود فى مثل هذا البناء ؟

— بلاشك ، وإلا فما معنى هذه الرحلة الطويلة كلها ؟

— لكن مساكن هذا البناء من النوع الذى يعلنون عنه فى الصحف.

— لكن هناك مكاناً أعتقد أنه يلائمك . . ألا ترى هذا الطابق الأرضى ؟

— بل هو تحت الأرض .

— بل هو خير من مسكنى الذى أوشك أن يتداعى .

لكن هذا المسكن تحت الأرض ، ومسكنك يوشك أن يتداعى ، والبواب يقبل نحونا ، وصديقى يحدثه وأنا أتفرس فى سمرته ، وفى النقوش المحفورة على خديه ، فعلى كل وجنة أرى شكلا هندسياً لخطين متوازيين ، وهو ذو ثقة عظيمة فى نفسه، إنه يحس بأهميته وإننا الآن نعتمد عليه وعلى كل حركة وكلمة منه . وغاب لحظة ، ثم عاد

وبيده مفتاح من النحاس الأصفر مربوط إلى قطعة من الدوبار مع كمية هائلة من المفاتيح المختلفة الألوان والأحجام . وتقدمنا ونحن ننخفض خلفه بضع درجات . ثم وقف وتنحنح وبصق . وأدار المفتاح فى الباب . وكان علينا أن ننحنى قليلا جداً ونحن نعبر الباب حتى لانصطدم بأعلاه .وكانت رائحة الطلاء لا تزال تفوح من جنبات الجدران . وكانت الغرف ضيقة ومنخفضة ومعتمة ورطبة ولكنها نظيفة جداً ، مهيأة أكثر مما أرجو ، فها هى ذى غرفة الاستقبال ، وها هى ذى غرفة النوم ، ومطبخ ومرحاض ، وهنالك أيضاً ردهة وحمام . كانت فيه الكهربا تمتد خلاله أنابيب المياه وكان يكسو أرضه البلاط ، وبنوافذه زجاج عليه طلاء أبيض كثيف يحول بيننا وبين أقدام العابرين فى الطريق وبين نظراتهم إذا شاءوا الانحناء ، وهناك أسلاك دقيقة الفسحات وقضبان حديدية بين الزجاج والأسلاك . وكان البلاط فى بعض الغرف مزخرفاً ، وكانت الجدران فى بعض الغرف مزركشة ، وثمة صدى لوقع أقدامنا على بقايا الرمل هنا وهناك . وصديقى يتمتم : رائع رائع ما رأيك ، رائع ، وأنا أفكر فى ضيق الغرف ، فى عدد النوافذ ، فى زواجى القريب ، فى صديقى ، فى المطر ، فى إلحاحه ، فى خطيبتى ، فى صاحب هذا البناء ، فى مصنع الدخان ، فى الأجر الذى عساه أن يطلبه ، وصديقى يتمتم : رائع رائع . . فلما رأى صمتى ، اغتنم فرصة ابتعاد البواب — وأحسبه قد ذهب يبول فى مرحاض بيتى الجديد — وصاح :

— الأمر لا يحتاج إلى تردد .

— انتظر حتى نرى كم يطلب أجراً .

— دائماً تعلق أمورك على شرط ، هل أعجبك البيت ؟

وظهر البواب من جديد ، فصمتا وكأنهما منشغلان بشيء آخر . . وقف البواب وقد عقد يديه كأنما ينتظر أمراً ، وكأنما لمح ما على وجهيهما من إشفاق وتهيب . وكان إحساسه بأهميته فى هذه اللحظة قد ازداد ، فتفرس فيهما لحظة واحدة لكنها ما كانت لتغيب عن أنظارهما ، وكأنما شاب نظرته شيء من الريبة فيهما ، فمال عليهما كأنما يوشك أن يدلى بسر خطير وهمس :

— هل تنويان أن تؤجرا هذا المكان ؟

— نعم نحن نفكر فى ذلك .

— وهل ستؤجرانه معاً ؟

— بل سيؤجره واحد منا ، صديقى هذا .

— وكم يستطيع أن يدفع ؟

— بل كم يطلب صاحب هذا المسكن المعتم الرطب .

— إذا كان منخفضاً معتماً رطباً ، فاتركاه وعودا بعد يومين لن تجدا غرفة واحدة خالية فى هذا البناء كله .

— قلت لك كم يطلب ؟

— لست أعرف على وجه التحديد ، لكنكما تجدانه الآن جالساً بمقهى الأزهار بميدان الحرية ، ويحسن ألا تقابلاه مباشرة .

فقالا فى صوت واحد : ولماذا ؟

ـ لأنه من الخير أن يكون بينكما وبينه وسيط فيؤجر لكما المسكن بأجر معتدل .

ـ لكننا لا نعرف أحداً من أصدقائه .

وجلس البواب على مقعده الخشبي ، خارج البوابة العظيمة ، تجاه السلم الرخامى . والساكنون الجدد يصعدون ، والساكنون الجدد يهبطون ، وهو يرفع عينيه من حين لآخر ليتم حديثه ، وهما يصدقان كل كلمة مما يقول .

* * *

وكان المقهى يحتل زاوية عند التقاء الميدان بأحد الطرق المتفرعة عنه . ومساحو الأحذية منتشرون على طول الرصيف يلتقطون الداخلين كلما لمحوا حذاء موحلا أو شبه موحل . وكانت أبواب المقهى زجاجية ، قد طليت عوارضها الخشبية بطلاء حديث أصفر ، وعليها لافتات تحذر الداخلين من التلوث . فاقتربا من أحد هذه الأبواب يرقبان الجالسين .

كان رواد المقهى من سن واحدة تقريباً ، يكادون يرتدون زياً متماثلا كأنهم تلاميذ فى مدرسة ، وكان أكثرهم لا يسير باعتدال ، بعضهم كأنما قدماه صناعيتان ، وبعضهم يخب كأنما له قدم أطول من الأخرى ؛ وبعضهم يفسح ما بين رجليه كأنما به شيء من كساح أو كأنما هنالك مسامير داخل حذائه . وبرغم اختلاف السن واختلاف الزى بينهما وبينهم إلا أنهما شعرا أنه من الواجب عليهما أن يعرجا قليلا فى مشيتهما حتى لا يلفتا الأنظار . أما القائمون بالخدمة فكانوا يملكون أقداماً

سليمة صحيحة ، وكان الرواد جميعهم — بلا استثناء — يلعبون الشطرنج ويحتسون القهوة ويدخنون ، وكأنما قد قسموا أنفسهم إلى فرق وأعلنوا السباق ، كل يريد أن يصرع أخاه . . كانوا منهمكين فى اللعب ، وثمة صمت منتشر فى المكان كأنما هو رواسب حوار عميق وغريب قائم بين كل اثنين قد اشتد التنافس بينهما . والداخلون يعرجون ، والخارجون يعرجون ، والخدم يذهبون ، والخدم يجيئون ، وهما يتفرسان فيهم عساهما يختاران الشخص الذى يتوسمان حاجتهما فيه .

وكانا قد تسللا داخل المقهى ، ودنا من ناحيتهما خادم أسمر بيده كوب ماء ، فلما وضعه أمام أحد الجالسين وقفل راجعاً اقتربا منه ليستوقفاه ، وتفرس مؤمن فى وجهه فإذا به نوبى أيضاً وعلى وجهه نفس الشكل الهندسى . . خطان متوازيان غائران فى وجنتيه . وبرغم أنهما كانا يعرجان قليلا فى مشيتهما إلا أنه أدرك على الفور أنهما غريبان ، وحين أخذ صلاح يسأله لمح مؤمن فى عينى الرجل البريق نفسه ، بريق الإحساس بالأهمية كأنما هو ليس مجرد خادم بينهما وبين الذى يطلبانه . . ولقد أخبرهما أن « البك » ليس موجوداً ولو أنه كان هنالك منذ لحظات إلا أن صديقه يونس بك لا يزال يجلس ويعرف أين يمكن أن يكون .

إذن فالرجل ليس هنا ، ويونس بك هنا ، ونهار كامل ، بل أسبوع آخر يوشك أن يضيع عبثاً ، وخطيبتى عنايات تدفعنى وصديقى صلاح يدفعنى ، والفندق ذو الأرانب يدفعنى ، ورحلتى هذا النهار

ووجودى فى هذا المكان وخطواتى التالية ، كل ذلك لا يدع لى مجالا للاختيار ، فعلى إذن أن أواصل كفاحى بقية النهار .

ودلهما الخادم على رجل فى نحو الأربعين ، رأسه تلمع « وعويناته » تلمع وبذلته السوداء تلمع وحذاؤه يلمع ، من رأسه إلى قدميه . . كان ينبعث منه بريق كأنما يبدو من خلال مرآة ، وكان مهذباً للغاية ، فقد كان يضع ساقاً على ساق فلما رآهما أنزل ساقه إلى جانب الأخرى ، وأذن لهما بالجلوس ، وسارع ينادى الخادم كى يقدم لهما شيئاً ، ولاحظا رقعة الشطرنج أمامه ، وكانت القطع السوداء فى جانب فى حين اصطفت القطع البيضاء فى الجانب الآخر ، وكان يبدو من وضع القطع أن اللعب قد بدأ حديثاً . وقد أدرك مؤمن فى الحال ما طرأ على فكر صديقه ، فصلاح يود لو يجلس أمام يونس بك ويلاعبه الآن ، ولا بأس أن يستمر اللعب ساعة وساعات إلى آخر النهار . عساهما يستطيعان أن يكسباه إلى جانبهما . فلماذا لا يكون يونس بك واسطة بينهما وبين صاحب المسكن ، وكان صلاح يجيد لعبة الشطرنج ، أما مؤمن فهو لا يزال يتعلم المشاركة فى هذا اللون من الصراع . وقد حدث ما توقعه مؤمن ، فإن صديقه صلاح لم يفاتح يونس بك فى المهمة التى أقبلا من أجلها ، بل كأنما سعى إليه خصيصاً لكى يلاعبه الشطرنج ، وبدأ يكشف له عن سعة معلوماته ولكى يوضح له أنه برغم عدم إصابته بالعرج كأكثرية الباقين ، إلا أنه لا يقل عنهم فى اللعب مهارة ، وكأنما كانت كلمة الشطرنج هى كلمة السر بينهما ، فما لبث أن صاح

فيه يونس بك قائلا :

ــ لقد جئت إذن فى وقتك المناسب أيها الرجل ، فلقد غادرنى صديقى منذ لحظات ، وكنت حائراً فيما يمكن أن أفعله الآن .

وجلسا وجهاً لوجه ، وبدأ التحمس على وجه صلاح ، وأصر على أن يبدأ صف القطع من جديد بعكس يونس بك الذى كان يود لو يبدأ اللعب من حيث توقف . وكان من المحتمل أن يطرأ على ذهن صلاح فكرة خبيثة ذلك ألا يتحمس كل هذا التحمس وألا يخلص له كل هذا الإخلاص ، بل يقدم هزيمته للرجل على سبيل الرشوة ، لكنه فى الواقع قد اندفع لا يتنبه لشىء من ذلك على حين كان مؤمن يرقب عقربى الساعة المثبتة فى أعلى الحائط أمامه .

وفى الساعة الحادية عشرة كان قد مات أول بيدق أبيض ، وفى الحادية عشرة وثلاث دقائق مات أول بيدق أسود ، ولا بد أن كلامنهما قد ضحى ببيدق من عنده ليستر وراء ذلك هجوماً بعيداً . وفى الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق كانت قد ماتت ثلاثة بيادق أخرى سوداء وثلاثة أخرى بيضاء ، وفى الساعة الواحدة مات رخ الملك الأبيض وحصان الملك الأسود ، وفى الساعة الثانية تذكر مؤمن أنه لم يتناول طعاماً من الصباح حتى تلك اللحظة . وفى الساعة الثالثة والنصف كان رواد المقهى قد أخذوا ينصرفون ، وفى الرابعة كان الرذاذ يطرق زجاج المقهى فى الخارج ثم انقطع ، وفى الخامسة كان فيل أسود قد مات ، وفى السادسة إلا عشر دقائق قال يونس بك (كش ملك) وفى السادسة تماماً كانت

المعركة قد وصلت لحظتها الحاسمة وكأنما لم يعد الصراع أمام مؤمن مجرد قطع سوداء وقطع بيضاء ،وفى السادسة وعشر دقائق مات رخ أسود ،وفى السابعة إلا ربع كان مؤمن يجتر أشياء كثيرة عجيبة حول حياته وطفولته ورئيسه ومستقبله وفتاته ومسكنه ، أفكار يعيدها مرة بعد أخرى بلا نهاية في دائرة مغلقة على نفسها كأنما يقضم أظافره ، وفى السابعة إلا خمس دقائق كان المقهى قد ازدحم بالرواد من جديد ، وفى السابعة تماماً قال صلاح « كش ملك » وفى السابعة والربع كان مؤمن يشرب فنجان القهوة السابع ويدخن السيجارة العشرين ، وفى السابعة والنصف إلا سبع دقائق مات الوزير الأبيض وبعدها بخمس دقائق مات الوزير الأسود مما يبين أنهما موشكان على نهاية هذا الصراع .

وفى السابعة والنصف تماماً لم يبق من القطع السوداء إلا الملك وأربعة بيادق على حين تبقى من القطع البيضاء بيدقان وحصانان ورخ الملك ، وبهذا أصبحت نهاية الملك الأسود معروفة ومحتومة ، فبعد ثلاث نقلات سيموت لا محالة ، وبهذا أصبح صراع الأسود مع الأبيض صراعاً لا جدوى من ورائه .

وبدا على الرجل أنه لا يقبل الهزيمة ، وأنه يود أن يبدأ من جديد ، وهنا يحاولان إيجاد طريقة للخلاص ، حين شاهدا يونس بك يرفع بصره نحو رجل مقبل ضخم الجثة يسير على مسندين ، فلا بد أن ساقيه صناعيتان ، ولما أصبح أكثر اقتراباً وقف يونس بك باحترام شديد ، مما اضطرهما أن يقفا معاً — وبنفس الاحترام — بدورهما ، وأقبل الرجل

الضخم محيياً يونس بك ، وقدمهما إليه يونس بك بغير أن يقدمه لهما ولا أن يذكر اسمه ، فيبدو أن الرجل كان من الشهرة بحيث افترض فيهما يونس بك أنهما لابد يعرفانه من قبل ، وقد لمحاساعته الذهبية وسلسلته التى تهبط من جيب داخلى ، وعرفا فيه صاحب المسكن الذى جاءا يطلبانه ، وظل الرجل واقفاً بضع دقائق فظلوا واقفين معه ، فلما جلس ومرت نحو نصف دقيقة أذن يونس بك لنفسه أن يجلس وأن يجلس معه مؤمن وصلاح ، وسمعاهما يتهكمان فى الحديث .

— وماذا قال محاميك ؟

— ليس أمامه إلا أن يرفع الأمر إلى القضاء .

— إذن فلم يترك الرجل المسكن ولا يريد مغادرة المكان .

— بل لا يزال يصر ويرجو .

— آه قصة زوجته وأطفاله ، والرصيف والسماء .

— وقصة المال الذى سيأتيه ولا يأتيه !

— والوسطاء الذين يرسلهم وراءك فى كل زمان ومكان ! .

وهنا انحنى الرجل الضخم وهمس فى أذن يونس بك .

— أظنهما وسيطين .

— بل يريدانى وسيطاً بينك وبينهما .

قالها يونس بك ضاحكاً ، لكنه ما لبث أن دهش حين أخذنا نوضح الأمر ، وكنا متحمسين للغاية ، فليس هناك مجال للخوف أو الخجل ، حدثه صديقى عن وظيفتى وحدثته عن مرتبى ، حدثه عن اسمى وحدثته

عن اسم خطيبتى ، حدثه عن حبى وحدثته عن زواجى ، حدثه عن الفندق الذى ترعى به الأرانب وحدثه عن أصدقائى وأحلامى ، والرجل يستمع إلينا ، وأنا مدرك أنه قد يطردنى ذات يوم من مسكنى الذى لن أملكه ، حين يكون لى زوجة وأطفال ولا مأوى لهم بعد ذلك إلا الرصيف والسماء .

— وكم تريد أن تدفع ؟

— خمسة جنيهات .

— بل سبعة جنيهات .

— ولكن هذا نصف مرتبى .

— ولكن المسكن سيظل خالياً ولن يؤجر لك بهذا الأجر

وفى الساعة الثامنة وخمس دقائق أعلن يونس بك أنه يريد نفس هذا المكان مخزناً لبعض بضائعه . وعند ذلك أدرك صلاح أنه كأنما أخطأ بانتصاره ، وأنه سلك إلى نفسية هذا الرجل طريقاً عكسياً فأبعده عنه بقدر ما كان يريد أن يقربه إليه .

وبينما هما خارجان ، التفت صلاح إلى مؤمن وقال هازئاً :

— لقد بدا عليه الغضب كأنما أخطأت بانتصارى ، كأنما ليس من حقى أن أنتصر .

* * *

ولقد هبط المساء الآن والسماء توشك أن تمطر من جديد ، وعليك أن تعود يا مؤمن إلى الفندق ، حيث تحس كأنما أنت قادم من سفر

وكأنما أنت على أهبة سفر جديد ، ستجد زجاجات الكازوزة المقلوبة ، وترى صاحب الفندق وهو ما يزال يبصق ومن حوله الأرانب تقفز . . وستدخل غرفتك وتضىء النور لتشم بقايا رائحة الدجاج وترى من عساه يشاركك غرفتك هذه الليلة ، ثم تجمعكما الغربة الموحشة والظلمة المغرية الخبيثة ، وتحصل على اعتراف جديد .

بل ستعترف أنت الليلة لزميلك الجديد ، ستروى له كيف كافحت حتى أصبحت كاتباً بمصنع الدخان ، وكيف كافحت حتى تعرفت على عنايات ، وخطبتها إلى نفسك ، ثم تخبره أنه لا بيت لك ، قل له إن بيتك فى المقهى ، وفى الطرقات ، وفى سينما المدينة حيث يعرضون عليك منازل فخمة ، وبيوتاً رحبة واسعة ذات حدائق وذات أثاث بلورى ، لها غرف كثيرة ، وأبواب ، ونوافذ ، وفيها أطفال وفيها حفلات ، قل له إنهم يهدمون فى المدينة كل منزل منخفض ويخططون كل أرض فضاء ، ثم ترتفع منازل ضخمة عالية رائعة الهندسة متعددة الحجرات كقصور التيه ذات نوافذ كثيرة وشرفات كثيرة وأبواب مغلقة كلها فى وجهك .

فإذا صحا الصباح ستذهب إلى عملك حيث تلتقى بصديقك صلاح ، ثم تنحنى ظهراً على منزل خطيبتك حيث دعتك لتناول الغذاء ، لا تنتظر هذه المرة للأسبوع المقبل ، فلتواصل بحثك غداً وبعد غد وبعد غد . اغتنم كل فرصة وكل دقيقة . اقرأ إعلانات الجرائد جميعها وسر بطرقات المدينة جميعها واسأل من تعرفه وتعرف على من لا تعرفه ،

واجمع حولك كل من لا بيت له . فأنت بطل من أبطال هذا القرن ، لأنك استطعت الحصول على وظيفة ، والحصول على حب ، ولابد لك — وللآخرين — من الحصول على بيت .

نوفمبر ١٩٥١

محتويات الكتاب

صفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/١٥٠٦

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

